١٣٩

روايات احلام

سجن الماس

www.elromancia.com
مرمورية

روايات احلام

سجن الماس

تساءلت اريكا مذهولة: هل يمكن أن يتزوج الناس هكذا؟ هل تستطيع فتاة أن تربط حياتها برجل لم تعرفه ولم يسبق أن التقته؟

هذا ما كان سيحدث لصديقتها الحميمة، لو لم تقرر اريكا أن تخلص نيقيل من مصيرها التعس، وتنتحل هويتها وتحل محلها!

ونجحت اللعبة في إنقاذ صديقتها لكنها لم تنجح في إنقاذها من فخ العريس الغاضب، فالدون فيليب دو ميندرا يريد عروساً وإذا كانت العصفورة الأولى قد أفلتت ففي قفصه الآن عصفورة أجمل!!!...

١ ـ موعد مع المغامرة

أعلنت شارلوت باكستر قائلة:

ـ أتعرفين شيئاً؟ سأشتاق إلى المكسيك حقاً.

رفعت أريكا رأسها عن الملفات التي كانت توضبها في صندوق كرتوني، مكوّرة شفتيها عجباً:

ـ ما الذي دفعك إلى تغيير رأيك المفاجىء إذا لم أقل المتأخر؟ حسبت أن لا شيء في مكسيكو سيتي يمكن أن يقارن بلوس انجيلوس؟

ـ حسناً.. كنت أفكر ملياً في الأمر، فوجدت أن هناك في الواقع كثيراً من أوجه الشبه المشتركة..

بدأت شارلوت تعد على أصابعها:

ـ... زحام السير، الدخان الضبابي، واحتمال الزلازل.. يجب أخذها في الحسبان..

وافقت أريكا وعيناها تتراقصان:

ـ هذا صحيح.. أعتقد أن لا أمل في أن تغيري رأيك بشأن مرافقتي.

هزت شارلوت رأسها:

ـ لا حبيبتي.. بالنسبة إليّ الخرائب هي الخرائب، ومن تعوزه رؤيتها؟ أنا لست سائحة، ثم لقد قرأت الكثير عن «الأزتيك».. لديهم عادات مروّعة.. لن أعود إلى لوس إنجيلوس تؤرقني الكوابيس.. أعتقد أنك لم تغيري رأيك أنت كذلك.

هزت أريكا رأسها:

ـ بخصوص العودة إلى كاليفورنيا مع «كيمكو»؟ لا.. لقد تمتعتُ تماماً

بالعمل معهم، لكن عقدي كان وسيلة إلى غاية.. طريقة تمكنني من رؤية المكسيك.

وفكرت بألم: وطريقه لإبعادي عن زوريخ وعن هيوغو قدر المستطاع.

اقترحت شارلوت بلطف:

- إذن وقعي عقداً آخر لرؤية الولايات المتحدة، بيري على استعداد لتدبر أمر تصريح عمل لك حالما تُبلغيهم.

ابتسمت أريكا:

- عرض مغر جداً.. لكنني واثقة من أنني لو أردت معاودة العمل، فسيكون هذا في أوروبا.

- إذن لماذا لا تعملين في اسبانيا؟ لغتك الإسبانية رائعة، والفضل يعود إلى تدريب نيقبل لك.. وستكون فرصة تنتهزينها.

كشرت أريكا قليلاً:

- ربما.. في الواقع لقد خططت كي أجد مكاناً متحرراً أكثر في المرة القادمة.

ضحكت شارلوت:

- لا تقولي إنك سئمت النظرات الفضولية وأنت تسيرين في الشوارع؟

- أكرهها.. إنها وقحة مهينة.. ليس لدي أي شك في جاذبيتي كما هي عليه، ولست في حاجة إلى أي تشجيع بتعليقات سخيفة من الغرباء..

رفعت شارلوت كتفها:

- لا يضر الأمر طالما لا تحملينه على محمل الجد.. وأنا أحب أن أتلقى الاطراء.. حركة تحرير المرأة ليست العلاج.. لقد رأيت عاقبة ذلك على الناس.. شقيقتي مثلاً كانت متزوجة سعيدة، إلى أن أخذت إحداهن توسوس لها. الآن هي مطلقة، والأولاد يبكون طوال الوقت، والنقاش دائم مع المحامين حول النفقة.

أقفلت أريكا صندوق الكرتون وختمته بلصوق عريض.. ثم قالت:

- هذا يتجه إلى التطرف.. لكن ما لن أستطيع تعوّده هنا.. أن النساء مجرد تابعات للرجال. صناعياً تخطو المكسيك خطوات عملاقة.. لكن تبقى

هناك أشياء لم تتغير.. وهذا ما أجد صعوبة في التأقلم معه.. حسن جداً.. انظري إلى نيقبل مثلاً.

- وما خطبها؟

- كل شيء. هناك الوصي عليها.. إنها تشاركنا شقتنا منذ ثلاثة أشهر، ولم تخبره بعد. هو يعتقد أنها تعيش في بيت للشابات في الدير..

ابتسمت شارلوت:

- اهدأي.. إذا كان هناك أحد لا يحتاج إلى شفقتنا فهي نيقبل.

أخذت أريكا علبة كرتون أخرى:

- أتعنين لأنها ستنجو من الفخ؟ أعتقد أنك على حق.

- لا.. لم أعن هذا.. ولست واثقة أنها ستنجو، كما تصفين الأمر.

وضعت أريكا الملفات التي كانت تحملها ونظرت إلى الفتاة الأخرى باهتمام متزايد.

- لكنها ستنجو بالتأكيد بعد أن تتزوج سكوت. لن يبقيها مقيدة.. أم أنك تظنين أنهما لن يتزوجا؟

هزت شارلوت رأسها بارتياب، فانفجرت أريكا:

- هذا سخيف! لقد قلت بنفسك إنك لم تشاهدي شخصين يحبان بعضهما هكذا.. إنها تعيش في انتظار عودته من شيكاغو وتعرفين هذا.

- بالتأكيد.. فقصتهما هي الأكثر دفئاً هذا العام.. لكن الزواج؟

هزت رأسها مجدداً:

- لا أظن هذا. هل تتصورين أن وصيها سيسمح لها بأن ترمي بنفسها بين يدي مهندس كيميائي؟

- ربما لن يكترث.. على أي حال هو لا يفكر فيها كثيراً ولم يأت يوماً لرؤيتها.. وهذا بالتأكيد أفضل نظراً للظروف..

- هذا صحيح.. لكنه لا يعني.. أنه لن يصبح مهتماً إذا عرف أنها تخطط للزواج من شخص لا يوافق عليه.

- ولماذا لا يوافق على سكوت؟ عدا كونه ألطف شاب تتمنين لقاءه، فهو كفؤ ووظيفته جيدة، وهو أكثر من قادر على إعالة زوجة.

هزت شارلوت كتفيها:

ـ لدي إحساس أنه سيحتاج إلى أكثر من هذا بكثير ليكون مقبولاً كزوج لنيقيل.. فكري فقط، منذ عرفناها.. كم من الوظائف قد شغلت؟

ـ واحدة فقط.. الأسبوعين اللذين أمضتهما هنا كموظفة استقبال.

ـ هذا صحيح.. وهل دهشنا من أنها لم تتلق أية عروض أخرى بسبب أنها كانت تعمل بطريقة مريعة؟

ابتسمت أريكا تتذكر الرسائل الخاطئة، وسوء الفهم، ومقاطعة المكالمات، الأمور التي ميزت فترة عمل نيقيل القصيرة في مكتب الاستقبال. ولم يفهم أحد كيف حصلت على العمل خلال غياب الموظفة الأصيلة في إجازة. وعلقت شارلوت يومها أن الإدارة مصابة بدوار من جراء أخطائها ولم تجد الوقت لفصلها.

قالت أريكا بعد تردد قصير:

ـ لا.. لم نندهش أبداً.. لكنها تعمل الآن.

ـ عمل اجتماعي.. مع الراهبات.. دون أجر.. فمن أين تأتي إذن بالمال لدفع حصتها من إيجار الشقة، ولشراء تلك الملابس الرائعة التي لديها، وكلها من أرقى المحالّ ناهيك بالحلي؟

ـ وماذا عن الحليّ.. إنها مبهرجة.. لكن..

ـ من حقها أن تكون مبهرجة، لأنها حقيقية.

ساد صمت مطبق برهةً، ثم قالت أريكا:

ـ لا بد أنك تمزحين.

ـ أقسم أنني لا أمزح.. لدي عم جواهري في «سانتا باربرا» وأمضيت عنده بضعة سنوات أتعلم التمييز بين المزيف والحقيقي..

وضعت أريكا يديها على خديها:

ـ يا إلهي! لقد أعارتني.. أعارتني حقاً عقد اللؤلؤ حين خرجنا كلنا إلى العشاء.

ـ أذكر.. وبدا رائعاً عليك.

كادت تصيح:

ـ ليس هذا بيت القصيد.. لنفترض أنني أضعته.. أو سرق مني!

ـ لم تضيعيه ولم يسرق.. على أي حال حليها مؤمن عليها. لكننا نبتعد عن الموضوع.. فما كنت أقوله هو أن نيقيل فتاة لطيفة التقيناها، وتشاركنا شقتنا وتطهو لنا أطيب طبق في المكسيك. وهي ثرية، وإذا كان وصيها يعرف ماذا يفعل، سيرغب أن يتزوّج مالها المزيد من المال.. لذا قد تواجه هي وسكوت المتاعب.. وهذا كل شيء.

فكرت أريكا بتعاسة: وهذا يكفي! ثم قالت بحدة:

ـ نيقيل تجاوزت سن الوصاية.. ولا شيء يمنعها من الزواج إذا أرادت.. وهي تريد.

ـ لا تكوني شرسة هكذا.. أوكي! حسناً، هي وسكوت «روميو وجولييت» من جديد.. وهي فتاة حلوة ومصونة. ولقد ربتها الراهبات، وكانت ستبقى في بيت الشابات لولا أننا دعوناها للسكن معنا.. وهي لا تزال تذهب إلى الدير لترى ما إذا كان لديها رسائل، ولأنها خائفة من أن يكتشف وصيها أمرها. لأنها تعرف في قرارة نفسها أنه لو «لوّح» بالسوط في الهواء لقفزت رعباً.

نظرت إلى أريكا نظرة تساؤل، وأكملت:

ـ وإذا لم تجرؤ على مصارحته أنها تشارك شقة في منطقة محترمة من البلدة، مع فتاتين أجنبيتين، فكيف ستقول له إنها مخطوبة لأميركي شمالي.

ـ هذا أمر مختلف.. إذا كان يمنعها من مغادرة بيت الشابات فهذه ليست نهاية العالم.. لكن لو اعترض على زواجها من سكوت، فهذا سيحطم قلبها.. وقد تنحني أمام الضغط بالنسبة لمسألة الشقة، أما بالنسبة لمسألة سكوت فلا.. أنا واثقة.

عادت شارلوت إلى عملها:

ـ حسناً.. لديك إيمان مؤثر بقوة إرادتها لا أشاركك فيه.. وأعتقد أن من الأفضل لنا متابعة توضيب الأوراق. يبدو المكان وكأننا على أهبة مغادرته.

تنهدت أريكا: أجل.

لم تكن تتوقع أن تتمتع بعملها مع «كيمكو» إنها لا تعرف الكثير عن تقنيات المصانع الكيماوية وطريقة عملها. وكانت سعيدة لجهلها.. لكنها كانت متلهفة لأي نوع من العقود يبعدها عن زوريخ، وعن رؤية هيوغو، وهو يتزوج ابنة رئيس إدارة الشركة التي يعمل فيها، الشقراء الغبية.

لم تكن أصلاً تتوقع الحصول على الوظيفة، مع أنها تعرف أن معرفتها اللغة الإسبانية التي درستها في برنامج تعليم مكثف في معهد «البوليتكنيك» حيث تلقت علوم السكرتاريا، ستمكنها من تبوّء مركز جيد.. و«كيمكو» على أي حال شركة أميركية، ومعظم موظفيها يعملون في الفرع الرئيسي في أميركا مثل شارلوت.

لكن الوظيفة عرضت عليها وقبلتها بحماسة ساعدتها على تسكين الألم والذل اللذين جعلها هيوغو تعانيهما.. كان حبه قد تملكها حتى بدا لها من المحال أن لا يبادلها المشاعر، لكن هذا لم يؤثر على ما خطط له، فقد كان عازماً على الزواج، وسكرتيرة تكاد لا تكسب سوى أجرها، لا تشغل في نظره مركز زوجة محتملة.

كانت جالسة قربه، تحس أنها استحالت تمثالاً حجرياً، بينما يسجّد جزء من دماغها بلا وعي أنه يقول لها إن زواجه لا داعي لأن يشكل حائلاً بينهما، خاصة بعد أن تتحقق الترقية التي وعده بها «حماه» المستقبلي.. وأنه بعد ذلك سيعمل على نقل أريكا إلى مكتبه كسكرتيرة خاصة.. وسيكون هناك رحلات عمل يقومان بها معاً، كما قال، وسيساعدها على إيجاد شقة أكبر حيث يستطيعان الاختلاء ببعضهما قدر المستطاع.

جلست تصغي بصمت إلى صوته، وهو يعرض عليها خططه المشينة. لطالما سألت نفسها ما الذي منعها من ذلك الالتزام النهائي معه، ولم تستطع إيجاد رد، سوى أن هناك شعوراً دفيناً لا تعرف ما هو حذرها من أن تهب نفسها دون ثقة، وبشكل أعمى.

حين تمكنت من التفكير بجلاء أكثر في الذي حدث، عرفت أنها يجب أن تشعر بالارتياح لأن لا مرارة في نفسها تزيد خيبة أملها.

جاءت إلى المكسيك مصممة على أن لا تستغفل مرة أخرى، ومرارتها

كانت درعها.. ليس فقط ضد المكسيكيين، بل ضد الرجال عموماً..

لكن ما لم تدركه، أن بعض الرجال، لدى رؤيتهم تثني شعرها الأحمر البني المنسدل على كتفيها، والعينين الخضراوين، بأهدابهما المرسلة، والأنف المستقيم الصغير، وشفتيها المكتنزتين، سوف لا يألون جهداً لإيجاد مفتاح لصدودها. مما أجبرها على اعتماد صرامة قاسية أعادتها إلى ما كانت عليه قبل دخول هيوغو حياتها.

وها هي الآن في وضع دفاعي متيقظ.. تتساءل ما إذا كانت ستقع في حب هيوغو بقوة لولا أنها مرتبكة وحيدة وبعيدة عن وطنها لأول مرة في حياتها.

السفر، ورؤية العالم، كانا دائماً يشغلان تفكيرها منذ الطفولة.. ولقد عرف والداها تلك النزعة إلى التجوال التي لم يشاركاها فيها، فقدّما لها التشجيع اللازم.. كانت موهبتها التي لا شك فيها لتعلم اللغات هي الحافز الأساسي، وكانت بارعة بالفرنسية والألمانية قبل تركها للمدرسة.

لطالما تساءلت أريكا من أين جاءتها الرغبة في السفر.. فوالداها كانا قانعين في مزرعتهما في «بارتون آياس» في «سمرست» ولا يتطلعان إلى شيء أفضل.. ورالف، شقيقها الأصغر كان مثلهما.. فيوماً ما ستصبح المزرعة له..

أما الآن، فهي ليست واثقة تماماً مما تريد.. العمل لكيمكو، كان أكثر متعة مما توقعت.. فالشركة كانت تطلب مستويات عالية من الكفاءة.. لكن في ذات الوقت، عاملتها بطريقة ودية لم تختبر مثلها في أية وظيفة شغلتها من قبل.. ولقد كانت الشركة مهتمة جداً مع نهاية عقدها لإنجاز مصنع كيميائي في المكسيك بأن تنتقل للعمل معها في الولايات المتحدة، ولو مؤقتاً.

لم تعرف أريكا لماذا رفضت.. بكل تأكيد لا يجول في خاطرها شيء أفضل.. مع ذلك رفضت، لمجرد أنها أحست بالتململ.

ربما كان السبب يعود إلى ترقّبها للإجازة.. فأشهر العمل الأخيرة كانت محمومة، والأسابيع الأخيرة من تنظيف المكتب وتوضيب الأوراق،

كانت منهكة.

سوف تفتقد شارلوت بالتأكيد.. كانت مترددة لحظة حين وصلت إلى «مكسيكو سيتي» لتجد زميلة شقة تنتظرها، وكيف لها أن تعرف أنها وهذه الكاليفورنية الطويلة الصهباء ستتوافقان على المشاركة في مسكن؟ مع ذلك، ومنذ اليوم الأول، لم تواجها مشكلة حقيقية.. ثم، فيما بعد، جاءت نيڤيل ليصبحن ثلاثة..

كانت أريكا تحسد نيڤيل.. نشأتها في مدرسة الدير كانت تؤهلها للزواج، ولتكون شبه خادمة في مجتمع يسيطر الرجل عليه.. هدف حياتها هو أن تكون زوجة أحدهم، وأماً لأطفاله.. وهي تتقبل هذا كأمر واقع.

حتى أن تمردها الصغير، وقرارها بالانتقال إلى شقة مع أريكا وشارلوت، ساهم في دفعها نحو مصيرها المختار، فلولا هذا التمرد، لم يكن من المحتمل أن تزدهر علاقتها بسكوت كاميلز.

كانا قد التقيا خلال فترة عمل نيڤيل القصير في مكتب الاستعلامات في «كيمكو».. كان سكوت واحداً من العديد من الموظفين ممن وجدوا أنفسهم وقد قطعت مكالماتهم، واقتحم مكتب الاستعلامات كمن يبحث عن غريمه، ثم توقف.. نظر إلى وجه نيڤيل، وجه له شكل قلب، وأصغى إلى صوتها الرقيق وهي تعتذر.. فنسي كل احتجاجاته.. وأمضى الساعة التالية، والكثير بعدها، يعلمها كيف تشغّل لوحة الهاتف الآلي.. وكما علقت شارلوت لم يحسّن هذا أداء نيڤيل، لكنهما على الأقل أمضيا معاً وقتاً طيباً.

أصبح سكوت زائراً دائماً للشقة بعد انتقال نيڤيل إليها.. وتبنى متطلبات ودّ قديم الطراز يجلبه للهدايا، زجاجات عطر، باقات زهر، حتى أنه جاء مرة بعصفور غريد في قفص. وكانت نيڤيل تغني كذلك أغاني صغيرة سعيدة تنبيء عن إشعاعها الداخلي الذي كان يظهر في لمعان عينيها وحمرة خديها.

هكذا يجب أن يكون الحب.. يأتي بالثقة والأمان. ولو أن ذلك

الإشعاع قد خف مؤخراً فقد أرسل سكوت إلى شيكاغو لبضعة أسابيع.. وفي غيابه ذوت نيڤيل كزهرة مهملة.. لكنه سيعود في الأيام القليلة القادمة، وأريكا واثقة أنهما سيعلنان خطوبتهما، حالما يعود.

هذا إذا تمكنت نيڤيل من زف الخبر إلى الوصي عليها، دون فيليب أنديكو دومينترا، المتزمت الصارم المحافظ.. إنها تبدو مرتعبة منه متحاشية حتى ذكر اسمه.. لكن أريكا استطاعت الحصول على بعض المعلومات عنه.

إنه غني جداً، وصاحب سلطة ونفوذ.. في يوم من الأيام كانت عائلته تمتلك أراضي شاسعة في الشمال لتربية المواشي. لكنهم مؤخراً بدأوا بالتنويع، استثمروا أموالهم في الصناعة ومزارع الفاكهة والبن، واضح أنهم كانوا يستبقون اليوم الذي ستنقسم فيه المزارع الكبيرة إلى وحدات أصغر، وتتحطم الاتحادات العائلية للملاّك الأراضي.

وعرفت أريكا أن والد نيڤيل كان رجل أعمال شريك لدون فيليب، ولهذا أصبح وصياً عليها، بعد غرق والديها في طوفان مأساوي منذ سنوات عديدة.

واضح أن وصايته كانت قائمة على أساس مالي عملي أكثر منها على مستوى شخصي. اعترفت نيڤيل على مضض أن سنة وأكثر مضت منذ زارها آخر مرة.. وواضح كذلك، أنه من النوع المتباعد الوقور، لا يمكن أن يدع فتاة شابة وشأنها، فقد تصرفت نيڤيل دائماً وكأنما مجرد الكلام عنه ضرب من ضروب الخيال.

كان من الممكن أن تتخيله أريكا.. رجل مسن كثيف الشاربين، ملتح ربما، سمين، منتفخ متعجرف. وتمنت من كل قلبها أن تكون شارلوتَ مخطئة، وأنه لن يحاول التدخل في سعادة نيڤيل.. لم يكن هناك من داع لأن يتدخل.. سكوت ليس صائد غنائم، أو منتهز فرص، وإن كان يعوزه ذلك الثراء الذي تملكه عائلة مينترا.

ربطت آخر صندوق كرتوني وختمته ووضعت عليه العلامة الفارقة، ثم جلست متراجعة إلى الخلف متنهدة.

- حسناً، لقد انتهينا من هذا.. وأستطيع التنعم بفنجان قهوة.. أتظنين أن الآلة لا تزال عاملة؟

- إذا كانت كذلك فهي الشيء الوحيد العامل في المبنى، عَدَانا. انهي العمل هنا وسأذهب لأتأكد من القهوة.

مر على غيابها بعض الوقت، وخشيت أريكا أن تكون الآلة، قد تعطلت وأن شارلوت اضطرت لشراء القهوة من المطعم الصغير القريب من المبنى.

تقدمت من النافذة لتنظر إلى الساحة. صوت زحام السير بدا محتبساً في حرارة الظهيرة، وتتصاعد من الشارع في الأسفل أنغام الأرغن الآلي الحزينة.. عازف الأرغن موجود هناك معظم اليوم، وتعرف اللحن عن ظهر قلب.. لكن الأنغام الرنانة اليوم كانت أكثرة حدّة، وأحست أريكا بالدموع تتجمع في عينيها.

قالت في نفسها إنها حمقاء، ولماذا تبكي؟ لقد أمضت وقتاً رائعاً في مكسيكو سيتي، وخلال أيام ستقضي عطلة العمر.. إنها على عكس شارلوت، طالما فتنها تاريخ «العالم الجديد» وجولتها مخطط لها بدقة لتشمل أكثر المواقع الأثرية الممكنة.. لطالما حلمت بمثل هذه الجولة، وقريباً جداً، كل أحلامها تتحقق.. إذن، لماذا بحق السماء تقف هنا لتبكي؟ سمعت الباب الخارجي يُفتح ثم يصفق. فاستدارت بسرعة تمسح الدموع عن خديها بأصابع مرتجفة، آملة أن لا تلاحظها شارلوت.

لكنها شهقت، وقد تفطر قلبها لاحمرار عيني نيقيل:

- نيقيل؟ ما الأمر؟ هل حدث شيء؟ هل أنت مريضة؟ سكوت.. أوه يا إلهي! هل حدث شيء لسكوت؟

قالت نيقيل:

- لا.. إنه بخير.. إنه بخير.. لكنني لن أراه ثانية.

وانفجرت ببكاء شديد.

أوصلتها أريكا إلى كرسي، تحاول تهدئتها، مع عودة شارلوت بكوبين كرتونيين من القهوة. قالت وهي تضعهما من يدها:

- أعتقد أنه كان عليّ أن آتي بثلاثة.. ما الأمر؟

- أود لو أعرف.

فتشت أريكا في الأدراج إلى أن وجدت علبة مناديل ورقية:

- كل ما تردده أنها راغبة في الموت، وتتوسل إلى سيدة «غوادبلوب» أن تميتها.

رفعت شارلوت حاجبيها:

- بالتأكيد تعني ما تقول.. حدثيها بالإسبانية أريكا.. ربما تعبر عن نفسها أكثر.

جمعت شارلوت أفكارها، وقالت برفق:

- كفي عن البكاء نيقيل. إذا كان بمقدورنا مساعدتك فسنفعل.. لكن يجب أن نفهم أولاً لماذا أنت يائسة؟

استمرت نيقيل بالنحيب، لكنها كانت تقوم بجهد للسيطرة على نفسها.. حين تكلمت، بالكاد تمكنت أريكا من فهم ما تهمس به:

سأتزوج.

أعطتها منديلاً ورقياً آخر:

- أجل.. نعرف هذا.. من سكوت وفي أسرع وقت ممكن.. فعلامَ البكاء؟

هزت نيقيل رأسها، وأخذ صوتها بالثبات والوضوح أكثر:

- ليس الأمر هكذا.. اليوم زرت الدير لأصلي في المعبد لعودة سكوت سالماً.. وقالت لي الأم المسؤولة إن هناك رسالة لي.. وعرفت فوراً أنها من الوصي عليّ.. يا إلهي! لقد قرأتها ولم أتمنى سوى الموت!

- أتعنين أنه منعك من الزواج من سكوت؟

قالت نيقيل باكتئاب:

- إنه لا يعلم بوجود سكوت.. كنت أنتظر الوقت المناسب لأقول له لأنني كنت أخشى غضبه.

قالت شارلوت ساخطة:

- هل يمكن أن تقول لي إحداكما ما الذي يجري؟

ردت أريكا: ليتني أعرف.

جلست شارلوت قرب نيقيل، تمسك بيدها:

- واضح أن المشكلة في الرسالة.. هاي حبيبتي.. ما مضمون الرسالة؟ هل يريدك المهيب الدون فيليب أن تتزوجي شخصاً آخر؟

شرقت نيقيل بدموعها وهزت رأسها، فنظرت شارلوت نظرة ماكرة إلى أريكا كأنها تقول: ألم أقل لك هذا!!

قالت نيقيل:

- غداً.. غداً يجب أن أترك مكسيكو سيتي وأسافر إلى «مونتيراي» مع مانويل.. فيما بعد سنتزوج.

- أنت ومانويل؟ هكذا؟

اتسعت عينا نيقيل:

- ليس مانويل.. لا.. إنه ابن عم دون فيليب والتقيته مرة واحدة حين كنت طفلة.

قالت أريكا بسرعة:

- آسفة حبيبتي.. لكننا نحاول أن نفهم.. إذا لم يكن مانويل هو العريس، فمن يكون إذن؟

- إنه دون فيليب.

شهقت أريكا: يا إلهي!

وتكورت شفتا شارلوت في صفير صامت، ثم قالت:

- رائع.. دون فيليب هذا.. لا شيء يضاهي إبقاء المال حيث هو.. ضمن العائلة.

قالت نيقيل بصوت خال من التعبير:

- هذا ما كان يريده والدي.. ولطالما عرفت هذا.. لكن مع مرور الوقت، بدأت آمل أن لا يحدث هذا.. إنه رجل أكبر مني بكثير.. رجل عرف الكثير من النساء.. أنا.. سمحت لنفسي بالأمل في أن يختار زوجة أخرى.. ولو أنه تزوج لوتشيا كويزس.

سألت شارلوت:

- ومن هي تلك؟

هزت نيقيل كتفيها:

- إنها.. صديقة له.. زوجها كان من رجال السياسة.. وهي الآن أرملة منذ سنوات عديدة. ارتبط اسماهما عدة مرات.. قالت لي فتاة في الدير إن من المعروف لدى الجميع أنها له.. «اميغا».. وقالت إن من المستحيل أن يتزوجني لأنني طفلة بالنسبة له، وهو المعتاد على نساء متمرسات.

تصاعد الاشمئزاز بمرارة في نفس أريكا.. إنه ليس كبيراً في السن فقط ومتعجرف بل زير نساء ومرتزق.. وقالت بحرارة:

- لا يمكن أن تتزوجيه نيقيل.. كاتبيه.. قولي له كل شيء.. لا يمكنه أن يرغمك.

انكمشت نيقيل في كرسيها، وقالت بصوت مرتجف:

- لا أستطيع أن أعصيه.. يجب أن أسافر غداً إلى مونتيراي برفقة مانويل.. أنت لا تعرفين دون فيليب.. ولا غضبه لو كتبت له مثل هذه الرسالة.

جادلتها أريكا بعناد:

- لكن يجب أن يعرف أنك لا تحبينه.. وأنك خائفة منه.

تنهدت نيقيل:

- قالت لي أمي، يحسُن بالفتاة أن تحترم الرجل الذي يجب أن تتزوجه.. فالحب يأتي بعد الزواج.

- بينما أنت تحبين سكوت؟

ارتجفت شفتا نيقيل:

- كان هذا حلماً مجنوناً.. يجب أن أنساه الآن بعد أن تكلم الدون فيليب.

قالت أريكا بشراسة:

- أوه.. لست مضطرة.. نيقيل، لا يمكن أن تستسلمي، وتتركي نفسك تُجبرين هكذا. قد يكون والدك عزم على تزويجك بالدون فيليب

زمناً، لكنه لو كان الآن هنا وعرف بأمر سكوت، وأدرك شعورك نحوه لغيّر رأيه.

التفتت إلى شارلوت التي هزت كتفيها بصمت وقالت:

ـ لماذا لا تهربين مع سكوت؟

للحظات أنار الأمل وجه نيڤيل، ثم انطفأ:

ـ لكنه في شيكاغو.

ـ أعرف هذا. لكننا نستطيع الاتصال به، ونقول له إن الأمر طارىء، ويجب أن يعود فوراً.

هزت نيڤيل رأسها:

ـ يجب أن أسافر غداً.. ولا وقت لديه ليعود.

ـ إذن يجب أن يلحق بك إلى مونتيراي ليحاول التفاهم مع دون فيليب.

بسطت نيڤيل يديها عاجزة:

ـ لن يكون لهذا أي جدوى.. ولن يستقبله دون فيليب، أو يسمح لي برؤيته.. أريكا.. أنت لا تفهمين.

قالت أريكا متجهمة:

ـ بالعكس.. أفهم جيداً.. أنت لست على استعداد لمواجهة ذلك الوصي.

انكمشت نيڤيل أكثر:

ـ أريكا.. ليس من الممكن الوقوف في وجهه، كما تقولين.. إنه يفعل ما يريد في كل الأوقات.. وهو مطاع دائماً.

قالت أريكا بغضب:

ـ أوه.. حقاً؟ كم أتمنى أن ألتقي بهذا السيد المتسلط.. سأفعل أي شيء لإيقافه عن تنفيذ ما يريد، ولأول مرة في حياته!

قالت شارلوت:

ـ ولماذا لا تفعلين؟

ـ أفعل ماذا؟

ـ أوقفيه عند حده.. صحّحي كلامي إذا كنت مخطئة نيڤيل.. مانويل

هذا لا يعرفك، أليس كذلك؟

قطبت نيڤيل بحيرة:

ـ لا.. فكما قلت، إنه ابن عم دون فيليب.. والتقيته منذ سنوات طويلة..

قاطعتها شارلوت:

ـ عظيم.. كل ما يعرفه أنه في الغد سيأخذك من مكان ما، من الدير كما أعتقد، ويرافقك إلى مونتيراي.. حسناً.. بإمكان أريكا الذهاب بدلاً منك.

ساد سكون، ثم قالت أريكا:

ـ هذه أسخف فكرة سمعتها.

قالت شارلوت بهدوء:

ـ ليست سخيفة.. فكري قليلاً.. أنت تتكلمين الإسبانية وكأنك من أهل البلاد.. وإذا ألبسناك شعراً بنياً مستعاراً، ونظارات سوداء وتبرّجاً كاملاً، يمكنك الحلول مكان نيڤيل.. خاصة مع رجل لم يرها سوى مرة واحدة وهي طفلة.. حباً بالله!

شهقت أريكا:

ـ لكنني لن أنجو بفعلتي! لنفترض أنني خدعت هذا الرجل المسكين، وهذا غير مؤكد، فما الذي سيحدث حين أصل إلى مونتراي؟ لا يمكنني أن أبقى على المظهر ذاته مع دون فيليب.

ـ لن تحتاجي إلى مقابلته.. خذي معك حقيبة الكتف وفيها أحد فساتينك، وأوراقك، وتذاكر السفر لإجازتك.. حين تصلين إلى مونتراي، اختلقي عذراً لتتوقفي في مكان ما، مخزن، مطعم.. وادخلي حمام السيدات حيث تخلعين الشعر المستعار وترمينه، ثم بدّلي ثوبك و.. ها أنت.. وداعاً نيڤيل سانتوس، ومرحباً أريكا ريردون.. تاركة الدون فيليب يتحرّق غيظاً. أوه.. سيبحث عنها، لكنه لن يربط بينها وبين إنكليزية شقراء.. ولن يبحث في مكسيكو سيتي حيث ستتزوج من سكوت، وأنا الإشيتة.. حين تصبح جاهزة، يمكنها الكتابة له لتقول إنها تزوجت، ودعيه يفكر

كيف حصل هذا.

كانت أريكا على وشك أن تقول لشارلوت إنها تمادت كثيراً هذه المرة، لكنها رأت نيقيل تنظر إليها برجاء مجنون.. فقالت:

ـ نيقيل.. لا.. لا أستطيع! هذا جنون! مستحيل. لن ننجح.

كانت راحتا نيقيل مضمومتين بشدة أمام وجهها وكأنها تصلي.

ـ لكننا سنجعلها تنجح.. أريكا.. مع شعر مستعار وشيء من ثيابي، سيمر يومان، وربما ثلاثة، للوصول إلى مونتراي.. فهناك زيارات عمل يجب أن يقوم بها مانويل في الطريق لمصلحة الوصي علي. ثم عند وصولك إلى مونتراي، سيضيع حينها على الأقل يوم آخر يبحث فيه الدون فيليب هناك..

واستدارت بلهفة إلى شارلوت التي هزت رأسها، وقالت:

ـ ستتصل بسكوت على الفور.. وربما تستطيع أريكا التلاعب أكثر بالادعاء أنها مريضة خلال الطريق، مما يعطيهما متسعاً من الوقت.

قالت أريكا بيأس:

ـ لن أضطر إلى الادعاء، كفا عن هذا.. أنتما مجنونتان!

نظرت شارلوت إليها بثبات:

ـ قلت إنك تفعلين أي شيء لإيقاف ذلك الزواج. وما تحتاجه نيقيل أساساً هو الوقت.. الوقت لسكوت كي يعود ويتزوجها.. وهذا ما يمكنك أن توفريه لهما.

قالت نيقيل بشهقة بكاء صغيرة:

ـ أجل.. أوه.. أجل أريكا.. فلو ذهبت إلى مونتراي فلن أرى سكوت مرة أخرى.. أعرف هذا.

ـ لكنني لا أعتقد أنني سأنجو بفعلتي حقاً.. أوه.. أعرف أن الناس تنوّه بطلاقتي بالإسبانية.. لكن غلطة واحدة وينتهي أمري.. ولا أستطيع السفر مئات الأميال وأنا صامتة.

ـ ولمَ لا؟ لن يتوقع مانويل مني أن أثرثر معه، فهذا سيكون غير محتشم.. ثم إذا ادعيت أن حركة السيارة تجعلك سقيمة، فهو لن يتوقع

منك الكلام أبداً.. إنه أصغر عمراً من دون فيليب.. حين كنت طفلة كان لطيفاً معي.. أريكا.. أتوسل إليك أن تفعلي هذا لأجلي. لن أتمكن من أن أحب دون فيليب وهو لن يحبني.. إنه يتزوجني فقط لأنه حان وقت زواجه، ولأنه يرغب في وريث.. هل تقبلين أنت الزواج لهذا السبب؟

جمدت أريكا.. ورأت هيوغو يبتسم لها وكأنه بالأمس.. وسمعت صوته: «بالطبع لا أحبها حبيبتي.. أنت من أهتم بها.. وما إن أتزوجها، لا حائل يمنع أن نبقى معاً قدر ما نريد، طالما نظل متكتمين»..

كتمت ارتجافاً صغيراً، تتذكر كيف وهي تعيش عذاب تلك اللحظة، أحست بشيء من الإشفاق على زوجته التي لن تحوز أبداً الثقة في حبه وإخلاصه. زواج مصلحة.. ملائم جداً للرجل لكنه يحطم قلب المرأة. نيقيل لا تستحق هذا المصير.

قالت:

ـ حسن جداً.. سأفعل!

* * *

٢ ـ في الدرب نحو المجهول

وقفت أريكا متوترة الأعصاب في ظل الشرفة المسقوفة، تحدق في الشارع المُقفِر.. لقد تأخر مانويل.. وفي أية لحظة قد ينفتح الباب خلفها وتطل إحدى الراهبات لتسألها ماذا تفعل هنا.

للمرة بعد الألف، قاومت الإغراء بأن تعدّل وضعية الشعر المستعار.. إنها كريهة.. صحيح أنها عملية، لكنها تسبب الحرارة والحكاك.. فستان زهري حريري، حذاء بأربطة جلدية عالي الكعبين، وحقيبتان فاخرتان من حقائب نيقْيل.. الشيء الوحيد الذي لم يكن في محله كانت الحقيبة الجلدية المتنفخة على كتفها..

نظرت إلى ساعتها تعض شفتها بتوتر.. تفكر كم من المضحك أن يكون دون فيليب قد غيّر رأيه.. فجأة ظهرت أمامها سيارة.. فدب الذعر في أوصالها.

لم يعد في الإمكان التنصّل.. كل ما تتمناه الآن هو أن يكون الشعر المستعار، ومساحيق التجميل، والنظارة السوداء الكبيرة، مقنعة بما يكفي.. وتبنت جواً من التعالي كما اقترحت نيقْيل، ونظرت أمامها مع تقدم السيارة لتتوقف عند مدخل الدير.

كان خلف المقود سائق ببذة رسمية، لكنها بالكاد فطنت للأمر. كانت مشغولة جداً بالنظر إلى الرجل الذي ظهر للتو من المقعد المحاذي للسائق ووقف قرب السيارة، ينظر إليها.

قالت نيقْيل إنه شاب.. أو على الأقل أصغر سناً من دون فيليب.. حسناً، هذا الرجل على الأقل في أواسط الثلاثينات.. لكن ما لم تذكره

نيقْيل، إما لأنها نسيت، وإما كانت أصغر من أن تلاحظ، أن مانويل رجل جذاب مدمّر.. طويل بشكل غير عادي، شعر فاحم، وعينان أكثر سواداً من الليل. بشرة ذهبية برونزية.. أنف أرستقراطي، وفم صارم الشفتين، وذقن تنم عن إباء وعزم لا يلين.

فكرت أريكا: يا إله السموات.. هذا هو القريب المسكين الفقير! ها إنه يصيب الرأس بالدوار، بطريقة ما صورة الوصي المترهل السمين لم تعد مناسبة أبداً.

تقدّم منها: منكبان عريضان، وخصر أهيف، ساقان ممشوقتان ملتصقتان بسروال رقيق باهظ الثمن.. قميصه الأسود منفرج، ليسمح ببروز صدر أسمر.

كان يبتسم قليلاً.. وارتفعت نبضات قلب أريكا، تفكر بأنه يعرف تماماً مدى تأثيره على النساء.

وقف عند أسفل عتبات السلم، ورفع نظره إليها متسائلاً: سنيوريتا؟

قالت ببرود:

ـ أنا نيقْيل سانتوس، سنيور.. وأنت متأخر.

الآن، وقد بدأت التمثيلية، أحست أنها سهلة.. وإذا كان دون فيليب قد أبلغ ابن عمه أن زوجة المستقبل خنوعة طائعة لا تنطق إلا عندما يكلمها أحد، فدون مانويل دو بيبيتو سيتلقى صدمة العمر.. وسرّها أن تراه مذهولاً فعلاً.

ـ أعتذر سنيوريتا سانتوس.. حدث شيء أخّرني. وبالطبع ما كنت أعرف.. لم يضعني أحد في صورة الجمال الأخاذ الذي ينتظرني.

ولم يخبرني أحد عنك كذلك... لا شك أن دون فيليب فقد عقله ليسمح لك بالخروج من قفصك لتجول متصيداً متربصاً بفتاة ينوي الزواج منها.. أكنت ابن عم له أم لم تكن!

لوت شفتيها بغير رضى وهو يصعد السلم إلى جانبها:

ـ دون مانويل.. هل أنا مضطرة لأن أذكرك من أنا؟

ـ بالطبع لا سنيوريتا. أنت «نوڤيا» الدون فيليب أنديكو دومينترا..

الرجل الأكثر حظاً في المكسيك.. أهلاً بك إلى أسرتنا نيڤيل.. إذا جاز لي أن أناديك هكذا؟

رفع يدها وكأنه يريد تقبيلها، ثم أدارها في آخر لحظة ومرر شفتيه على راحتها.

انتزعت أريكا يدها منه:

ـ سنيور! أرجو أن لا تضطرني إلى إخبار دون فيليب بتصرفاتك.

ـ سامحيني.. لم أتمالك نفسي.. لن يكون في تصرفي ما يريبك أقسم.. هل تسمحين أن أضع حقائبك في السيارة؟

نزلت السلم ببرودة ولحقت به، وقلبها يخفق.

ـ وحقيبتك؟

ابتلعت ريقها، تهز رأسها، تشد قبضتها على الحمالة:

ـ أفضل استبقاءها معي.

نظر إلى الحقيبة بصمت:

ـ إنها تسلب مظهرك الأناقة والسحر.

ردت باختصار: لها قيمة عاطفية.

فتح السائق الباب الخلفي، فركبت. ردّ الباب، ورأت رفيق سفرها يضع يده على ذراع السائق، ويقول له شيئاً أثار دهشته قبل أن يهز رأسه طاعة ويبتعد. في اللحظة التالية صعد مانويل إلى جانبها، ورأت السائق يراقبهما من خلال المرآة الأمامية، متجهم الوجه دونما تعبير..

خاطبته بصمت: إبق عينيك على المرآة «أميغو» وإذا وضع يده على أي مكان مني، استدع الشرطة.

استندت إلى الوراء في مقعدها تحاول جاهدة الاسترخاء، تذكر نفسها أنها تجلس في سيارة واسعة فخمة مكيفة، وأن إحساسها بأنها مكتظة مسألة خيال.

أقلعت السيارة، فأحست بقطرات عرق صغيرة تتصبب من شفتها العليا.. إنها الآن منطلقة في طريقها، حتى الآن كل شيء على ما يرام.. ثم اختلست نظرة إلى رفيق سفرها، وأدركت أن لا مجال إطلاقاً للرضى خلال

هذه الرحلة.. ابتلعت ريقها، وحوّلت اهتمامها ما أمكن إلى المناظر في الخارج.

كان قد مضى على انطلاق السيارة أكثر من نصف ساعة حين قال لها: أنت هادئة جداً.

هذه فرصتها.. أخرجت منديلاً مزيناً بالدانتيل من حقيبتها، ومسحت شفتيها.

ـ أنا لست جيدة في السفر دون مانويل.. ويجب أن تعذرني.

شهقت شهقة بدت حقيقية، وغاصت أكثر في مقعدها، تعي التعبير الحذر المهتم على وجهه.. فأغمضت عينيها مدعية الدوار.. أخيراً غلب الطبع الادّعاء.. ومهَدهدةً بحركة السيارة الناعمة، نامت.

استيقظت مذعورة بعد قليل من الوقت.. وفتحت عينيها بسرعة لتراه ينظر إليها، وجهه الأسمر القاتم قاسٍ متأمل.. وهي تنظر إليه بارتباك، تلاشى التعبير عن وجهه، وعاد ذلك السحر القديم.

ـ أهلاً بعودتك إلى اليقظة سنيوريتا.. هل أنت أفضل حالاً الآن؟

ـ قليلاً.

وجلست، تسوّي بيديها لا شعورياً تنورة فستانها، وتتبّعت عيناه حركتها، ينظر إلى شكل جسدها، واحمرت قليلاً.. ممتنة لوجود الحقيبة على المقعد بينهما كحاجز مادي.

ـ أين نحن؟

ـ كنت أنوي التوقف هنا لتناول الغداء.. لكن بما أنك لست على ما يرام.. ربما هذا ليس بالأمر المناسب.

تأوهت أريكا في نفسها، لا يمكن أن تعترف أنها تتضور جوعاً، فالتوتر كما يبدو يفتح شهيتها.. وقالت بلطف:

ـ أرجوك، لا تدع حالتي تؤثر في خططك دون مانويل.. وأنت تتناول طعامك يمكنني أن أتمشى.. الهواء النقي قد يفيدني.

مرة أخرى أحست بالنظرة المتفحصة، ثم قال: كما تشائين سنيوريتا.

أوقف السائق خوزيه السيارة في ساحة صغيرة خلف الكنيسة.. ثم

ساعدها مانويل على الخروج:

- هل أنت واثقة أنك ستكونين بخير؟ إنها قرية صغيرة.. لا يمكن أن تضيعي فيها.

مدت يدها إلى الحقيبة: سأكون بخير.

- وهل ترغبين في أخذ هذا الشيء الثقيل معك؟ اتركيها في السيارة.

بارتباك، قالت:

- أنا معتادة على حملها.. ولا تزعجني.

تمتم:

- واضح أنك لست ضعيفة كما يبدو عليك.

انتظرت لتتأكد من اتجاهه مع خوزيه، واتجهت في الاتجاه المعاكس.. في أحد الشوارع المتفرعة من الساحة، سوق صغيرة في أوج عملها، فيها منصات بيع طعام.. وقررت جائعة أن تأكل حساء الفاصوليا السوداء، وبعض المعجنات.. وأكلت كل وجبتها، ثم لعقت أصابعها.

أحست بارتياح وبمزاج أفضل بكثير وهي تعود إلى السيارة.. كان مانويل دو بيبيتو يقف خارج السيارة، ينظر إلى ساعته، يضرب قدمه في الأرض بنفاد صبر وهي تتقدم نحوه.

- كنت أتساءل عما إذا كنت مضطراً للبحث عنك.

- غراتسيا سنيور.. هل تمتعت بالغداء؟

- كان لذيذاً.

بدا متسلياً وهو ينظر إليها، وتساءلت بقلق ما إذا كان قد تبقى أي أثر للطعام حول فمها.. وهو يجلس إلى جانبها، قال:

- لدي زيارة عمل على بعد بضع كيلو مترات أمامنا، ثم سنجد مكاناً ننام فيه.

سألت مقطبة:

- بمثل هذه السرعة؟

بدت الدهشة عليه:

- سيحين وقت القيلولة.. لن ترغبي في أن نستمر برحلتنا خلال ظهيرة

النهار، ولا أن تطلبي من خوزيه فعل هذا.

قالت تحس بالغباء:

- لا.. بالطبع لا.. لم أكن أفكر.

الحياة في المكسيك تسير بطيئاً ساعات بعد الظهر.. لا يجب أن تخطىء هكذا مرة أخرى، وإلا سيبدأ في الشك.

وصلوا أخيراً إلى «موتيل» بناء كبير مترامي الأطراف أبيض اللون تحيط به حدائق صغيرة زاهرة ونوافير، وبركة سباحة، ونظرت أريكا إلى البركة بشوق، ثم كبتت مجرد التفكير بأسف شديد، فالسيدة التي تضع شعراً مستعاراً تبقى على اليابسة..

في كل مرة كانت تنظر فيها إليه، تجده يراقبها.. ما كان يفعله حقاً هو تعريتها بعينيه، وبدورها كنيقيل لا تستطيع الاحتجاج فالبريئة نيقيل لن تفهم للحظة ماذا يفعل.. وصرت بأسنانها: لكنني أعرف..! وأتشوق لأن أغرز عقب حذائي في عظم ساقه!

الكابينة التي أخذت إليها كانت نظيفة، ومريحة مع حمام صغيرة.. استدارت لتقفل الباب، لكنها وجدت مانويل في أعقابها، ونظر إلى الغرفة نظرة تقييم شملت السرير الواسع وفراشه العاجي اللون. ثم استدار إليها يأخذ يدها يرفعها مجدداً إلى فمه.

- قيلولة مرضية.. هل لديك كل ما تحتاجينه؟

ونظر مباشرة إلى عينيها.. أدركت أن ما عليها سوى إشارة بسيطة من يدها ويغلق الباب، ليبقيا معاً.. انتزعت يدها منه ترى السخرية في عينيه، وقالت بصوت متصلب:

- كل شيء.. شكراً لك، سنيور.

- هل لي أن آمل بسعادة صحبتك إلى العشاء؟

ابتسمت ببرود وقالت إن هذا سيكون لطيفاً.. بعد أن خرج أدارت المفتاح في القفل.. وأرادت أن تسترخي متعبة فوق السرير، لكنها أولاً تريد خلع الفستان الزهري الموشّى بالزهور والشعر المستعار... مررت أصابعها في شعرها المبلل عرقاً وتحركت نحو الحمام.. وهي تمر بالسرير، تركت

لخيالها العنان، وتساءلت ماذا كان سيحدث لو أنها أعطته الإشارة التي كان ينتظرها.. ابتسامة كانت ستكون كافية، حتى مجرد ضغط بسيط من أصابعها.

وبجهد جهيد قطعت حبل الأفكار التي تدور في رأسها.. وتمتمت حانقة: اللعنة! ثم تابعت الطريق إلى الحمام.

كانت قد استعادت نشاطها في الوقت الذي حان فيه انضمامها إليه في غرفة الطعام.. ارتدت ثوباً بسيطاً أحمر قاتماً وحذاءً أسود عالي الكعبين، وحقيبة سهرة صغيرة.. حقيبة الكتف الغالية مخبأة في الخزانة.

كانت الشرفة خارج المطعم مكتظة بالناس، معظمهم من السواح، لكنها شاهدته على الفور. كان يجلس إلى طاولة قرب سياج الشرفة، يقطب.. لاحظت أريكا بقلق أن مجموعة نساء أميركيات على طاولة مجاورة لا يحوّلن نظرهن عنه.

شقت طريقها عبر الطاولات الأخرى لتنضم إليه:

ـ بوناس ترادس سنيور.

كانت تحرص على إبداء البرودة.. لكنها لم تنجح سوى في أن تبدو خجولة.. وقف على الفور يسحب لها كرسياً لتجلس، ثم استدعى نادلاً بحركة مترفّقة من أصابعه، وطلبت كوكتيل الفاكهة وحضر الطلب فوراً. فارتشفته تتنعم ببرودته.

قال:

ـ قولي لي.. هذه النظارة السوداء.. بكل تأكيد لا تحتاجين إليها ليلاً.. أرجو أن لا يكون هناك خطب في عينيك؟

قالت بهدوء:

ـ أوه.. لا. لكن الطبيب نصحني بوضعها مؤقتاً.

وهذا فيه شيء من الحقيقة.

ـ أمر مؤسف.. يستطيع المرء أن يعرف الكثير من خلال عيني امرأة.

ردت بحلاوة: والرجل كذلك سنيور.

التوى فمه قليلاً وهو يوافق: تماماً كما تقولين.

كان من المرضي النظر إلى الظلام في الخارج، وأريج الزهور يصل إليهما مع نسيم الليل، مع سماع صوت ترقرق الماء من بعيد، تتخلله الضحكات والحديث من حولهما.. وكان على أريكا أن تكبت تنهيدة صغيرة.. سيكون لديها ذكريات تأخذها معها عدا مناظر الفن العتيق حين ستغادر المكسيك.

حاولت أن تتذكر كل ما قالته لها نيقيل عن مانويل.. ولم يكن هناك الكثير. إنه يعيش في «هاسيندرا لاماريبوسا» ويدير مزرعة المواشي لابن عمه.. أمه، دونا آنتيا، وشقيقته آلانا، تعيشان هناك أيضاً.. وقالت نيقيل إنه كان «لطيفاً» معها.. لكن أريكا كان لديها انطباع أن نيقيل لا تستلطف أمه وأخته، مع أنها لم تلتق بهما سوى مرة منذ زمن بعيد.

كانت قد سألت نيقيل عن سبب تسمية «الهاسيندرا» المزرعة، باسم «لا ماريبوسا» أي الفراشة.. لكن نيقيل هزت كتفيها بغموض وقالت إن هذا مجرد اسم.. على أي حال، ماذا يهم؟

تساءلت ماذا سيقول مانويل حين يدرك كم كان غبياً، وما إذا كان دون فيليب سيغضب منه. واسترقت نظرة إليه.. وضعية فكه المتعجرف كانت تشير إلى حدة طباعه.

كانت وجبة طعام لذيذة، وجلست معه إلى الطاولة، تختبيء وراء نظارتها السوداء، تحوك خيالات صامتة، لم تكن تمثّل فيها، بل كانت هي نفسها أريكا ريردون، الحرة لتتكلم، لتبتسم، لتضحك وتتمتع بصحبته.. فهي بالرغم من قلقها منه.. كانت بالفعل تتمتع بنفسها.. وكانت يده قريبة جداً من يدها، لو حركها قيد أنملة لتلامست أصابعهما.. وتنهدت بعمق تلتقط كوب العصير.

إنها تلعب لعبة خطيرة في هذه التمثيلية التي تشارك فيها.. لكن بطريقة ما قد تكون.. خلاصاً لها.

على أي حال، وجدت تصرفه محيراً. لقد أعطتها نيقيل فكرة أن مانويل هو الموظف الموثوق لدون فيليب، إضافة إلى كونه ابن عمه.. لذا كانت تفترض أن يعامل زوجة ابن عمه المستقبلية باحترام كبير.. ربما هو رجل لا

يستطيع مقاومة العبث مع امرأة جذابة، قد تمر في طريقه.. أو ربما هناك دافع أعمق لتصرفه.. ربما يكره في سره دون فيليب.. أو أنه بدافع من الولاء له، يمتحن أخلاق عروسه، ليتأكد أنها تستحق أن تكون عروساً لرأس عائلة ميندرا.

ظهر بعض الموسيقيين «الماريانثي» يتحركون بين الطاولات.. يعزفون على الغيتارة ويغنون. وعرفت أريكا اللحن.. إنها أغنية حب شهيرة في مكسيكو سيتي. وبدأت تدندن بها بصوت يكاد لا يُسمع.. وتقدم الموسيقيون من طاولتهما، واضح أنهم لاحظوا اهتمامها، وأقبلوا ليكملوا اللحن لها فقط. كان قائدهم يبتسم وينظر إلى رفيقها، ثم لاحظت أريكا أن وجهه تغيّر.. فنظرت بسرعة إلى مانويل لترى أن وجهه امتقع واكفهرّ، وتحركت أصابعه بسرعة ليبتعدوا.

احتست ما تبقى في كوب العصير، محاولة إخفاء خيبة أملها.. واضح أن الغزل في السيارة أمر، وأغنية حب علناً أمر آخر.. دفعت كرسيها إلى الخلف قائلة ببرود:

ـ لقد أتعبتني الرحلة.. وسأذهب إلى غرفتي.. ليلة سعيدة سنيور.

كان في عينيه سخرية خفيفة وهو يقف كياسة.

ـ بالطبع.. بوناس نوتشيس.. نيڤيل.

تردد قليلاً قبل أن يلفظ اسمها، وكأنما ليبرز اعتراضه على كلامها الرسمي معه.

ابتعدت، تتساءل رغماً عنها لماذا لم يعرض عليها مرافقتها إلى جناحها.. ربما قرر أن من الحكمة أكثر أن يلزم حدوده.

خلعت ثيابها ببطء واستلقت لفترة طويلة في الظلام، متعبة، لكن غير قادرة على النوم.. كان من دواعي الارتياح أن تعرف أنها يجب أن تختفي مع وصولها إلى مونتراي..

تناولت فطورها في غرفتها باكراً في الصباح التالي.. ثم ارتدت ملابسها وتبرجت بحذر، وخرجت تفتش عن مانويل لتجده في قاعة الاستقبال الرئيسية يخرج لتوه من إحدى غرف الهاتف الخاصة.

قال ببرود:

ـ شكراً لدقة مواعيدك. أمامنا رحلة طويلة متعبة.. وأرجو أن لا تملّي كثيراً.. هل قيل لك إن لدي عملاً أقوم به في الطريق؟

احتارت لهذا الصدود المفاجيء: أجل.

نظر إليها بسرعة:

ـ كنت أكلم ابن عمي على الهاتف.. ولدي رسالة لك منه.

قفز قلبها هلعاً.. وقالت: حقاً؟

ـ ألا تريدين سماعها؟

ـ لا.. لا أريد.. إذا كان لدى ابن عمك ما يقوله لي، يمكنه ذلك حين نلتقي.. لا أن يمرره عبر شخص ثالث.

ـ كما تشائين سنيوريتا.

لكنها رأت عضلة تنقبض في خده.. وعرفت أنه منزعج.

هذه المرة كانت الرحلة مختلفة تماماً عن اليوم السابق.. جلس مانويل إلى جانبها في الخلف، لكن كان معه حقيبة أوراق، وكان اهتمامه منصباً على ما تحتويه.. اليوم، لم تضطر إلى استخدام حقيبة الكتف كحاجز.

جلست تنظر إلى خارج النافذة إلى الظلال الرمادية والقرمزية «للسيرا» على مسافة بعيدة.. لكنها لم تتمكن من تركيز اهتمامها كفاية.

واضح أن حديث مانويل مع دون فيليب، ذكره بالتزاماته ومسؤولياته.. وتوقفوا عدة مرات في الطريق وتساءلت ما إذا كان المطلوب منها لزوم السيارة بإذعان في كل مرة، لكن مانويل نظر في المرة الأولى إلى ساعته وقال:

ـ لن أغيب أكثر من عشرين دقيقة.

وهذا بدا أنه سيتركها تفعل ما تريد.

لكن هذا لم يكن صحيحاً أبداً، كما اكتشفت حين تركت السيارة لتمدد ساقيها المتشنجتين.. مانويل كان قد اختفى داخل مبنى كبير، رسمي الطراز، والسيارة متوقفة بين المبنى وبين كنيسة قديمة، وتقدمت أريكا من الكنيسة لتجد أن خوزيه كان خلفها.. فابتسمت له ببرود وقالت إن بإمكانه

البقاء في السيارة وأضافت ساخرة:

ـ هذه بلدة صغيرة جداً.. ولن أضيع.

لكن خوزيه كان مصمماً.. إنها رغبة السنيور أن يرافقها، كما قال.. وأحست بالامتعاض، بالأمس لم يكن هناك ضرورة لكلب حراسة.. فلماذا اليوم؟ زارت الكنيسة أولاً. ثم تجولت في الشوارع تتفحص الآنية الفخارية والقماش على المنصات على جانبي الطريق، وتنظر إلى واجهات المحالّ.. لكنها على الدوام كانت تحس بوجود خوزيه الصامت وراءها.

حين انقضت الدقائق العشرون، ذكرها خوزيه بأدب، أنهما يبقيان السنيور منتظراً. وهذا ما اكتشفت أنه النموذج اليومي.. الرحلة السريعة الصامتة فوق الطريق السريعة، بينما مانويل يقرأ الوثائق، ويضع الملاحظات عليها، ثم يتوقف في مكان ما لوقت قصير، بينما تتجول في الشوارع المجاورة، بحراسة خوزيه.

أخيراً، قالت لمانويل ساخطة والسيارة تتحرك مجدداً.

ـ هل هي أوامر دون فيليب أن أسير في الشوارع كالسجينة تحت الحراسة؟

نظر إليها:

ـ ظننتك غير آبهة لأوامره؟

ـ وهل من المتوقع أن أكون مهتمة؟ يتصرف وكأنني غير موجودة.. ثم، وبناء لأوامره، يجب أن أذهب إلى هنا وهناك، أفعل هذا وذاك.. فماذا يتوقع مني سوى العدائية والامتعاض؟

للحظات بقي صامتاً، ثم استرخى فمه بسخرية:

ـ أظن أنك ستريته يتوقع أكثر بكثير من هذا.

ـ إذن سيصاب بخيبة أمل مريرة.. والآن أرجو أن ترفع الحراسة عني!

لم تكن تمثّل.. بل كانت تعني ما تقول، لحاق خوزيه بها إلى كل مكان سوف يتسبب بصعوبات كبيرة لا نهاية لها حين تقوم أخيراً بخطواتها نحو الهرب.

ـ دون فيليب يريد أن تكوني محمية تماماً.

سألت بمرارة ساخرة:

ـ حقاً؟ إذن ربما يجب أن يعرف أنني أتعرض لخطر في سيارته أكبر من تجولي وحيدة في القرى التي تمر بها.. دون مانويل!

نظر إليها بسخرية واضحة:

ـ إذن لماذا لا تقولين هذا له حين تلتقينه؟ أنا واثق أنه سيكون مذهولاً.

هزت كتفها بتوتر، واستدارت لتنظر خارج النافذة وهي تسمعه يضحك بصوت خافت.. ثم قال بعد قليل:

ـ أنا مسرور لأن دوار السفر لم يزعجك اليوم.. ربما قبل أن تنتهي الرحلة قد أتمكن من إقناعك بخلع نظارتك.

قالت وظهرها إليه:

ـ هذا مستحيل تماماً.

رد بهدوء: سنرى.

استدارت بحدة تنظر إليه، لتجد أنه منكبّ على أوراقه.

تناولا الغداء في مطعم على قمة جبل تطل على بحيرة. ولم يأكل مانويل كثيراً، بل كان يحدق إلى البعيد باكتئاب.. كانت تتوقع أن يعطي تعليمات لخوزيه للتوقف عند موتيل مرة أخرى ساعة القيلولة. لكنه لم يفعل.. وأكملت السيارة انطلاقها بسرعة عبر الأراضي التي تلمع الحرارة فوقها، وعلى هدهدة المحرك نامت أريكا.

استيقظت مجفلة.. تعي أنها كانت تحلم، لكن غير مدركة ما هو الحلم، إلى أن أدارت رأسها قليلاً.. ثم تذكرت.

في ركن من السيارة كان مانويل نائماً، جسده النحيل مسترخ تماماً.. وأحست بنفسها تتنفس بعمق وارتجاف مع همس ذكرى حلمها بشوق في ذاكرتها.

نظرت إليه ببطء، وعلى مضض.. لم تكن هذه فكرتها عن مزارع.. كتفاه عريضتان، لكن جسده رائع التناسق. تحولت عيناها إلى الأسفل على الساقين الطويلتين.. كل هذا نتيجة لأيام طويلة معتلياً صهوة جواد.. مع ذلك كانت يداه لغزاً. لم تكونا صلبتين خشنتين كما تصورت، بل ناعمتي

الراحتين بأصابع طويلة رقيقة.

حبست تنهيدة مع عودة عينيها إلى وجهه، ثم شهقت بخشونة لإدراكها، متأخرة، أنه صاح، ويراقبها.

جلست دون حراك.. تشكر السماء على نظارتها السوداء التي غطت أي عذر يمكن أن يكون في عينيها. لكن أنفاسها كانت مضطربة، ورأت عينيه تجولان على جسدها وتضيقان وهو يلاحظ مكامن فتنتها.

قال بنعومة:

ـ لقد أربكتني كوريدا.. هل أقول لخوزيه أن يأخذنا نحو التلال، ثم يتركنا لساعة أو أكثر؟

أحست باندفاع اللون الساخن إلى وجهها، وتمنّت لو تموت.. لكنها قالت بصوت متجمد:

ـ أنت وقح سنيور.

ـ ظننت نفسي واقعياً.

ـ اقتراحك الخسيس مغضب جداً.

ابتسم:

ـ بالطبع.. وكم سيكون لديك لتخبري دون فيليب.. متى التقيته.

ـ بإمكانك التفكير به؟

قال ببرود:

ـ فكرت به كثيراً.. ودائماً وهو معك، وأنت أكثر من راغبة بين ذراعيه كوبريدا.. إنها صورة مثيرة للاضطراب.. صدقيني.

انفرجت شفتاها، ثم أطبقتا بعجز.. ولم تستطع التفكير بكلمة واحدة تقولها، لكنها تعرف أنها يجب أن تقول شيئاً.

قالت متعالية:

ـ أرجوك، لا تكلمني ثانية دون مانويل.

إنه احتجاج ضعيف، لكنه أفضل ما استطاعت قوله.. وأدارت له ظهرها تنظر إلى خارج النافذة.

لم تستطع التفكير بما اعتراها.. فهي ليست غبية.. لقد تحرش بها

حقاً.. لكن هذا كل شيء، وليست نهاية العالم، وليست المرة الأولى التي يحصل لها هذا.. إنها أريكا ريردون، الملقبة بملكة الثلج.. من تستطيع إيقاف أي رجل وقح عند حده بنظرة احتقار واحدة.. لم تعبث أو ترتبك من قبل ولا يكفيها أن تتظاهر بأن سخطها جزء من الدور الذي تلعبه.. فهي مضطربة حتى الصميم، وتعرف هذا.

حين توقفت السيارة أخيراً، رمت نفسها تقريباً إلى الخارج، لا تكاد تعي أنهما وصلا إلى موتيل آخر، لكنه أصغر هذه المرة، وأقل فخامة.. وعرفت أن خوزيه يراقبها جيداً، فحاولت جمع شتات نفسها والتصرف بشكل طبيعي.

تقدم مانويل إلى جانبها:

ـ هل تتناولين العشاء معي؟

تجنبت نظره:

ـ لا.. لدي صداع.. وسأطلب إحضار بعض الطعام إلى غرفتي.

ـ كما تشائين.

لم يحاول ردعها عن قرارها وهي تبتعد عنه. في غرفتها لم تطلب طعاماً، فهي تعرف أنها لن تتمكن من ابتلاع لقمة واحدة.. خلعت ملابسها واستحمت، ثم استلقت فوق الفراش، تحدق في السقف.. أفكارها الدائرة في دوامة عاصية على الاستكانة والهدوء.

كان هناك صخرة واحدة تتعلق بها.. غداً ستصل مونتراي، وكل هذه المهزلة السخيفة الخطيرة ستنتهي. ما كان يجب أبداً أن تورط نفسها في هذا كله، وتعرف هذا.. ولا تملك سوى الصلاة للسماء للخروج من هذه الورطة سالمة.

رجائي يا إلهي لو يمر الغد على سلام.. ثم يكون كل شيء على ما يرام.. سأتمكن من تدبر أمر ما تبقى من حياتي وأنسى كل هذا الجنون.. سأكون حرة.

استمرت تكرر كلمة «حرة» وكأنها ترياق مسكّن.. أخيراً كان لها الأثر الذي أرادته، وغلبتها ظلمة الليل وظلال النوم في وقت واحد تقريباً.

٣ ـ الصقر ينقض

طَرْقٌ إحدى الخادمات باب غرفة أريكا أيقظها من نومها. فجلست تدفع بشعرها إلى الوراء عن وجهها، لتجد ولرعبها أنها في وضح النهار. وقيل لها:

ـ سنيوريتا، سيارتك تنتظر.

وسمعت المرأة تنسحب.

نظرت إلى ساعتها وتأوهت. لقد استغرقت كثيراً في النوم.. ارتدت ملابسها بسرعة، ووضعت الشعر المستعار الكريه بسرعة تلعن. كانت تريد أن تلتقي مانويل في وضح النهار، أنيقة مرتبة ومسيطرة تماماً على الموقف.. بدلاً من هذا سوف تظهر متأخرة، مستعجلة.

أمسكت حقيبتها وغادرت الغرفة بسرعة، تعي أن الحمّال ينتظر في الممر ليأخذ حقائبها.

وهي تخرج من قاعة الاستقبال إلى الشمس، أجبرت نفسها على الإبطاء لتأخذ أنفاساً عميقة مهدئة، وهي ترى السيارة المنتظرة. كان خوزيه يقف إلى جانبها، ينظر بقلق متلهف إلى المدخل.. لكن حين شاهدها ابتسم بارتياح وفتح الباب الخلفي لها.

تسلقت أريكا إلى الداخل.. لكن المقعد الخلفي الآخر كان فارغاً.. فاستدارت إلى الخلف تنظر من النافذة الخلفية، لكنها لم ترَ سوى خوزيه يشرف على وضع الحقائب في الصندوق.. حين أخذ مكانه وراء المقود مالت إلى الأمام: أين دون مانويل؟

استدار إليها وبيده مغلف:

ـ طلب مني تسليمك هذا، سنيوريتا.

ثم أقفل الزجاج الحاجز ما بينهما.

فتحت أريكا المغلف وأخرجت الورقة منه. كان فحواها: «آسف لأن عملاً طارئاً أبعدني عنك. أتمنى لك رحلة آمنة ولقاءً ساراً مع عريسك». والتوقيع غير مقروء.

قرأتها أريكا عدة مرات.. والارتباح يتلاشى أمام خيبة أمل غريبة.. إذن لن تراه مجدداً.. من ناحية أخرى، يعني هذا أن لديها خوزيه فقط لتتخلص منه حين يصلا إلى مونتراي. وهذا جيد.

فيما بعد، وقد تأكدت من تركيز اهتمام خوزيه على الطريق أخرجت مفكرة سجلت عليها خطة رحلتها.. هناك مطار في مونتراي، كل ما عليها أن تستفسر ما إذا كان هناك رحلة مباشرة إلى ماديرا.. لم يكن هناك وقت لتحديد كل التفاصيل قبل مغادرتها مكسيكو سيتي.. وزودتها نيقيل بمال يكفي لمواجهة أي طارىء بالرغم من احتجاجها.

وبدأت تقرأ مخطط رحلتها، تحاول استعادة إثارتها السابقة وهي تتصور ما ستفعل.. لكن هذا لم يكن سهلاً.. الأسماء، المعابد في الغابات، لم يعد لها رنين السحر السابق. تنهدت أريكا وأعادت المفكرة إلى حقيبتها، ترتب الفستان الصيفي المقاوم للتجعد الذي سترتديه فوق الأوراق.

تثاءبت، تشعر بالتوتر السابق يتلاشى.. مغامرتها الصغيرة تكاد تنتهي ويمكنها أن تبدأ بالاسترخاء. كان نومها ليلة أمس متقطعاً.. وهذا ما يفسر سبب تأخرها في الاستيقاظ باكراً.. رفعت قدمها على المقعد واسترخت، تفكر: المحطة القادمة ستكون مونتراي.

أيقظها إبطاء سرعة السيارة أخيراً.. وقاومت لتجلس مستوية، تضع يداً مرتبكة تتلمس الشعر المستعار.. إنها متوترة.. حلقها جاف.. كأنها نامت ساعات.. لكن بالتأكيد هذا غير صحيح!

توقعت رؤية بعض الضواحي، أو لافتات لمعامل صناعية.. لكن لم يكن هناك أي دليل أنهما يتقدمان نحو مدينة.. بل العكس.. بدا لها أنها في وسط اللامكان.. كان هناك بضع آثار للسكان، بضع أكواخ،

و «كانتينا» مقهى مسقوف بالصفيح.. حتى الطريق كان متغيراً.. لم يعودا على الطريق العريضة العامة.. بل على طريق ترابية وحيدة الاتجاه.. قرب الكانتينا مضخات وقود، ولهذا كان خوزيه سيتوقف.. لكن أين هما؟

تقدم خوزيه من بابها يفتحه:

ـ أترغبين في القهوة سنيورينا؟ لم أوقظك لتناول الطعام لأنني اعتقدت أنك ستفرحين بالوصول إلى مقصدك أكثر.

ـ سأحب القهوة.. متى سنصل إلى مونتراي خوزيه؟

سجل الوجه الجامد ما يقرب إلى الذهول:

ـ مونتراي سنيوريتا؟ لكنك تعرفين بالتأكيد.. لن نذهب إلى مونتراي.. أوامر الدون فيليب أن نتجه رأساً إلى لاماريبوسا.

انفغرت شفتا أريكا بشهقة مكبوتة. للحظة ظنت أنها ستفقد الوعي وأمسكت حافة الباب كي لا تقع.. رأت نظرة خوزيه الخائفة، فسارعت للادعاء أنها لوت كاحلها قليلاً بسبب ارتفاع الكعبين ثم تمكنت أن تقول:

ـ لا.. لم أكن أعرف.

لا شك أن ذلك كان مضمون الرسالة الذي حاول مانويل إيصالها إليها.

ـ متى.. متى سنصل إلى الهاسيندرا؟

رد وكأنه يتوقع التهنئة:

ـ بعد أقل من ساعتين، سنيوريتا. وستكونين مسرورة كما أعتقد لانتهاء هذه الرحلة.

انتهاء الرحلة.. تقدمت تجتاز الأرض الوعرة التي تفصل الكانتينا عن الطريق.. الرحلات عادة تنتهي بلقاء الأحبة.. أليس هذا ما يقال؟ لكن ليس هناك حبيب ينتظرها.. بل مجرد متسلط كريه تجرأت على أن تعترض سبيله.

داخل الكانتينا كان هناك فتاة تمسح بجهد طاولة وكرسياً، وجلست أريكا عليها تحاول السيطرة على دوامة أفكارها الجامحة.

ماذا ستفعل؟ إنها تعرف مما قالته نيقبل إن مزرعة أسرة ميندرا بعيدة

أميالاً طويلة عن أي مكان، ولا وجود لمحالّ يمكنها فيها إتمام تغيير شكلها، ولا شوارع مكتظة تختفي فيها.. ولا مكان للاختباء، ولا وسيلة للهرب.

جاءت إليها الفتاة بالقهوة، وشربتها أريكا، فساعدت في إنعاشها قليلاً.

إنها مجنونة لتركها نفسها تنام مرة أخرى، وأخذت توبخ نفسها.. لو كانت صاحية، لرأت أنهما تحوّلا عن الطريق الرئيسية، ولسألت عن السبب.. وكانت ربما استطاعت أن تغير شيئاً من تعليمات دون فيليب..

جاء خوزيه ليجلس إلى طاولة قريبة ليشرب قهوته.. بللت أريكا شفتيها وسألته ما إذا كان يعرف سبب تغيير دون فيليب لقراره حول خطة سفرهم.. أجاب خوزيه متكتماً:

ـ السنيور لم يشرفني بمعرفة الأسباب.. لكن أعتقد أن السبب هو المعبد.. هناك معبد جميل في لاماريبوسا، ولا شك أن دون فيليب يرغب أن يتزوج فيه.. إنه تقليد عائلي.

رددت مصعوقة: تقليد عائلي..

يبدو أن كل مخاوف نيقبل كانت مصيبة.. فلو أنها أتت إلى هذه الرحلة، ما من مجال كي يتمكن سكوت من اللحاق بها.. وحاولت أن تشعر بالسعادة لهما معاً، لكن في أعماقها، كانت معدتها تنقبض خوفاً.

استرقت نظرة إلى خوزيه.. تتساءل ماذا سيفعل لو أنها رمت بنفسها تحت رحمته واعترفت له بكل شيء.. لديها المال.. ربما تمكنت من رشوته ليعيدها إلى مونتراي. ثم تذكرت لهجة الاحترام في صوته وهو يتحدث عن دون فيليب.. والطريقة التي قال فيها «هذا تقليد عائلي» وعرفت أن لا أمل لها.. سوف يأخذها مباشرة إلى رب عمله، وسيبدأ التفتيش فوراً عن نيقبل.. وإذا وجدها وهي لم تتزوج من سكوت بعد، فستذهب كل التضحيات سدىً.

وقفت فجأة وطلبت من الفتاة أن تدلها إلى الحمام الذي كان في حاوية حديدية جاهزة عبر الفناء الخلفي.

خلعت أريكا نظارتها لتنظر إلى نفسها في قطعة المرآة المكسورة المعلقة فوق المغسلة. . بدت عيناها واسعتين مظللتين بلون قاتم، وأحست أنها متوترة كأنها وتر القوس.

لقد تحول كل شيء إلى كارثة. . وليس عندها أدنى فكرة كيف يمكن أن تبدأ في إصلاح الموقف. . كل ما تستطيع فعله هو أن تركب التيار، وترى إلى أين يوصلها. .

وهي تعود إلى الكانتينا، لاحظت وجود شاحنة صغيرة قديمة تقف في الفناء. وكان السائق يقف ليتحدث مع رجل مسن، ربما يكون صاحب الكانتينا. نظرت أريكا بشوق إلى الشاحنة وهي تمر بها. . لقد سألت الله وسيلة للخلاص من هنا. . وكأن دعوتها استجيبت.

لكن هل يمكنها أن تأخذها؟ لا شك أن السائق توقف ليملأ سيارته وقوداً أو ليشرب شيئاً. . لكن هل يكون السائق مهملاً بما يكفي كي يترك المفاتيح داخلها؟ وكم ستبتعد في سيارة غريبة عنها، وعلى بعد خطوات منها سيارة قوية مع سائق يعرف الطريق جيداً، وسيلحق بها دونما عناء؟

وهي تشيح ببصرها متنهدة. . رأت عيني السائق تبتسمان لها وتتفرسان بها دون خجل.

رأت صاحب الكانتينا يضع يداً على ذراعه. . ويقول له شيئاً بصوت منخفض. . واضح أنه نوع من التحذير، وسمعت كلمة «ميندرا». . وعبس سائق الشاحنة على الفور، وأصبح تعبير وجهه خجولاً. . ثم استدار يهز كتفيه ويحرك يديه وكأنه يدافع عن نفسه.

ارتجفت أريكا قليلاً. . أي نوع من الرجال هو دون فيليب، حتى أن مجرد ذكر اسمه له مثل هذا التأثير الفوري؟

جلست إلى الطاولة وأكملت ارتشاف قهوتها. . كان خوزيه قد اختفى. . لكنها سمعت أصوات ضحك منخفض من خلف باب مغطى بستارة في الجانب الآخر من المقهى. . وخمنت أنه استغل غيابها ليتعرف أكثر إلى النادلة الجميلة. قبعته وقفازاه كانا على الطاولة بانتظار عودته.

ولاحظت، بأنفاس مضطربة، أنه ترك مفاتيح السيارة كذلك. . وقبل

أن تعي ماذا تفعل أخذتها ودستها في حقيبتها. .

وقفت تعود إلى الباب الخلفي مجدداً. . لم يكن هناك أحد في مدى النظر. . الشاحنة كانت تقف في حرارة بعد الظهر. . ونظرت حولها، قلبها يخفق وجلاً. ثم تقدمت تنظر إلى مقعد السائق. . المفاتيح موجودة. أصدر الباب صريراً صدئاً وهي تفتحه، وجمدت لحظة. . تتوقع سماع وقع أقدام تركض وارتفاع أصوات. . لكنها لم تسمع شيئاً.

صعدت إلى السيارة، تجفل ألماً مع اختراق حرارة المقعد قماش فستانها الرقيق. . أخذت نفساً عميقاً، وأجبرت نفسها على الجلوس بهدوء. . إنها بحاجة إلى هروب متقن نظيف دون تعثر أو ارتباك. . ولن تسلك الطريق التي جاءت لتوها منها، بل ستتجه عبر الريف نحو «السييرا» البادية على مسافة منها، وتأمل أن تصل في مكان ما إلى الطريق العام، أو على الأقل إلى بلدة لها حجم معقول.

أدارت المفتاح. . لم يعمل المحرك من أول محاولة، لكنه اشتغل في الثانية. أرخت المكبح اليدوي بهدوء، تبتلع ريقها بصعوبة. وباستدارة العجلات بسرعة فوق الأرض الترابية انطلقت المركبة بسرعة تناقض تماماً مظهرها العتيق المهترىء.

من خلفها سمعت صراخاً، ثم صراخاً آخر. خاطرت بنظرة من فوق كتفها. . كان سائق الشاحنة يقف مع خوزيه كتمثالين مجمدين رعباً، ثم تحركا معاً يركضان إلى الأمام في محاولة يائسة للحاق بالسيارة قبل فوات الأوان. وابتسمت أريكا بتجهم، وضغطت بقدمها على دواسة الوقود. . ولم تعد تتطلع إلى الخلف. . إنها الآن تسير فوق الصحراء وتحتاج إلى كل انتباهها وشجاعتها.

قادت السيارة لأكثر من ساعة. . ثم أوقفت الشاحنة تحت ظل صخرة كبيرة تراجع حساباتها. . حتى الآن لم ترَ أي دليل على وجود طريق. . ومع أنها تعرف أن لا بد من وصولها إلى الطريق عاجلاً أم آجلاً، إلا أنها أحست برفرفة قلق متلهف في داخلها.

لم يكن في الشاحنة أية خرائط. كان فيها مشعل يدوي، وبضعة

أدوات، إضافة إلى سترة ملطخة بالزيوت. لا طعام ولا ماء.. ولا حتى قطعة شوكولا صغيرة.

خلعت الشعر المستعار ومررت يدها عبر شعرها.. لن ترتديه ثانية. ورمته عبر النافذة.. فتحت حقيبتها وأخرجت فستانها الأزرق، ثم وجدت الصندال الجلدي البسيط الذي ترتديه عادة مع الفستان الصيفي. بعد أن غيرت ملابسها، لفت الفستان الزهري والحذاء الفاخر، وتركتهما تحت أحد الصخور.

وهي تعيد إدارة المحرك فكرت بامتنان: لقد انتهى كل شيء.

ساعتان أخريان مرّتا.. وأدركت أريكا أنها ضلت في اللحظة التي نفد الوقود فيها من الشاحنة..

تأوهت عالياً.. متمنية لو تأكدت جيداً من الوقود.. مع أن هذا لا يفيد شيئاً، فهي لم تصادف قرية أو محطة وقود، أو أي دليل على وجود كائن حي منذ بدأت هروبها الأعمى.. هناك الكثير من المواشي حولها لكن دون أناس.. في البداية طمأنها هذا، فهو يعني كذلك أن لا دليل على أن أحداً يلاحقها.. لكن، بالتدريج، بدأ إلحاح القلق يتزايد، والآن، مع تقدم الليل، توقف القلق ليبدأ الخوف.

لم يكن لديها فكرة عن مكان وجودها.. ولم تبدُ التلال البعيدة أقرب مما كانت.. كان من الأفضل لها أن تتبع الطريق التي جاءت منها، وبما أنها لم تلتزم بطريق محددة في هذه الصحراء، بدأت تشك في أن تكون سائرة طوال الوقت في متاهات.

كابينة السائق كانت تغلي حرارة طوال بعد الظهر.. لكن، بعد غياب الشمس، سرعان ما تتحول الصحراء إلى صقيع.. فستانها الرقيق لن يكون كافياً لحمايتها، وتعرف هذا.

مع أنين محرك الشاحنة ثم توقفه، كادت تنفجر بالبكاء. لكن البكاء لن يحل المشكلة.. عليها أن تفكر.. كانت في قفر خالٍ يحيط بها الصخور والأشواك.. ومن السهل جداً تصور وجود عيون خفية تراقبها.

هذا يكفي.. وأنّبت نفسها بحزم.. تفكير إيجابي فقط يا فتاة..

وتفتيش دقيق آخر للسيارة. هذه المرة اكتشفت صفيحة معدنية، لكنها فارغة، فرمتها إلى خارج السيارة متأوهة بيأس..

كانت تأمل في ولاعة، أو على الأقل بعض الكبريت كي تشعل ناراً.. هناك الكثير من الأشواك الجافة حولها، لكن يبدو أن السائق لم يكن يدخن.

التقطت سترته تنظر إليها بقرف.. إنها بعيدة جداً عن النظافة، لكن هذا ليس وقت الاهتمام المبالغ بأشياء نافهة. أي نوع من الدفء مهما كان بغيضاً، أفضل من لا شيء.

أمامها ليلة طويلة جائعة.. ولا تجرؤ على مجرد التفكير بما يخبئه اليوم التالي لها وهي تسير على قدميها تحت الشمس المحرقة.. لا يمكنها البقاء هنا في هذا القفر على أمل أن يجدها أحد.. حتى لو بدأت حملة التفتيش، فسوف تخفيها الصخور المحيطة عن الأنظار.. حاولت أن تفكر بما تعرفه عن هذا الجزء من المكسيك، لكنه كان قليلاً جداً.. مع ذلك، كانت تذكر أن رجلاً في كيمكو تحدث مرة عن عقرب أبيض قاتل لا يوجد إلا في منطقة «دورانغو».. فهل هي يا ترى قريبة من هذه المنطقة؟ حتى ولو لم تكن قريبة، قد يكون هناك أنواع أخرى من العقارب وبألوان مختلفة من الحكمة التحوط منها وماذا عن أسود الجبال.. إنها متأكدة أن شخصاً آخر أتى على ذكرها أمامها.. والدببة كذلك.

أوه.. كفي عن هذا.. وعضت شفتها.. مع كل هذا أملت لو أنها اهتمت أكثر بنباتات وحيوانات هذه المنطقة البرّية..

أخذت الظلمة تشتد بسرعة.. وبعد تردد بسيط أشعلت مصابيح الشاحنة الأمامية.. دون وقود، لا جدوى من الحفاظ على البطارية.. وربما هناك فرصة أن يرى أحد الأنوار..

التقطت السترة ولفتها حول كتفيها مرتجفة.. غداً ما إن ينبزغ الفجر، ستنطلق نحو الشرق مجدداً، وترى كم تستطيع أن تقطع من مسافة.

لكنها الآن بحاجة إلى الراحة.. فاليوم التالي سيستنزف منها أكبر قدر من الطاقة.. وتكورت فوق المقعد، خدها مرتاح على يدها كالطفلة.. وأدركها النوم بسهولة أكثر مما أملت، وهي المتعبة من توتر الأيام السابقة..

حلمت «بارتن آياس» وبطفولتها، كانت تستلقي في حقل الذرة تراقب الصقور تحوم في دائرة كبيرة بطيئة في السماء الزرقاء فوقها.. إنه مكان هادىء آمن.. والتوت شفتا أريكا رضى وهي نائمة.. من الجيد أن يعود المرء طفلاً.. من الجيد أن يكون في أرض تغمرها أشعة الشمس، يراقب الصقور.. إلى أن انزلق الحلم فجأة إلى كابوس.. كان الصقر فيه منقضاً، وهي الفريسة أمامه.. مسمرة.. عاجزة.. غير قادرة على الهرب، أو الدفاع عن نفسها.

جلست صارخة، تنظر حولها.. كان الجو في داخل السيارة بارداً، لكنها كانت مبللة عرقاً وترتجف. ما الذي أيقظها؟ الحلم.. أم شيء آخر؟ مدت يدها إلى المشعل اليدوي وانزلقت عن المقعد نحو الباب.. نزلت من السيارة ببطء وخوف.. ووقفت متصلبة، رأسها إلى الأسفل، تصغي..

أجل.. هناك صوت: صوت صلصلة، صرير، واحتكاك.. وانكمشت تتمسك بالمشعل، تحدق ببركة الضوء الذي لا زال يندفع من الأنوار الأمامية.. كان المشعل كل ما لديها كسلاح.

وقع حوافر.. أصغت باهتمام أكبر، أعصابها تنتفض إلى درجة الصراخ ذعراً.. المزيد من المواشي؟ أم أنه مجرد حمار آخر؟

كان هناك الآن ظلال عند حافة الدائرة الضوئية.. ظل كبير كثيف يتحرك. وسمعت قعقعة السرج، وصهيلاً خفيفاً.

صاحت: كوين إي؟

تحرك الظل متقدماً نحو النور.. جواد أسود وفارس أشد سواداً.. رجل يرتدي ثياباً سوداً وقبعة عريضة متسعة تظلل وجهه.. واشتدت يدها على المشعل.

قال: من هناك؟

تجمد جسدها.. هاتين الكلمتين المختصرتين قيلتا بصوت مألوف جداً.. لكن هذا لا يمكن أن يكون حقيقياً.. وجادلت نفسها بيأس.. مانويل يبعد أميالاً ولا يمكن أن يكون هنا.. لا يمكن للقدر أن يتلاعب بها هكذا.. السبب هو توترها.. واقع أنها أفاقت من حلم سيء، يجعلها

تتصور أن لا أحد سواه يمكن أن يواجهها من على ظهر الفحل الأسود.

بدوار مذهول، انتظرت اتهاماته.. ثم هبط الفهم عليها.. إنه لم يعرفها.. كيف يعرفها؟ حين شاهدها كانت سمراء كلها حيوية ترتدي ثوباً زهري اللون وتتكلم الإسبانية.. بينما الآن..

قالت بالإسبانية بصوت متكبر دون لكنة:

ـ سنيور.. أنا تائهة! ضللت الطريق.

رد بالإنكليزية:

ـ إذن لقد ضعت.. وهذا أمر ليس غريباً.. إنها ليست أرضاً صالحة لقيادة السيارات.. هناك طريق جيدة على بعد عشر كيلومترات إلى الجنوب. لماذا لم تستخدميها؟

ترددت:

ـ كنت متجهة إليها.. لكن الوقود نفد من الشاحنة.

ـ ألم يكن من الحكمة أن تملأي الخزان قبل البدء بالرحلة؟

كان قلبها يضرب بشدة حتى بدا لها من المستحيل أنه لم يسمعه:

ـ لقد انطلقت على عجل، وأنا كذلك جائعة وعطشى.

هز رأسه:

ـ لا وقود، لا طعام، لا ماء.. ولا ثياب مناسبة. حتى بالنسبة لسائحة مجنونة، تبدين قليلة التدبير.. من أين حصلت على الشاحنة؟

لم تكن لهجته فيها إشفاق، لكن فجائية سؤاله الأخير أجفلتها.. من سوء حظها لو تعرف على الشاحنة اللعينة. ويجب أن تكون حذرة.

ـ هذا أمر من الصعب أن أشرحه لك سنيور.

ـ حاولي.

كان هذا أمراً.. وليس دعوة.

ـ أنا.. احتجت إلى وسيلة ركوب. وكانت الشاحنة متجهة في الاتجاه المناسب.. لكن السائق.. أساء فهم الموقف.

ـ أظن سوء الفهم كان منك سنيورينا.. أنت أكثر جنوناً مما ظننت.. كيف تقبلين مِنّة كهذه من غريب؟

ـ لم تكن منة.. كنت سأدفع له مالاً.

ـ لكن واضح أن الدفع لم يكن بالعملة التي يريدها.. وهل لي أن أسأل عن مصير الرجل؟

لأول مرة دخل المرح إلى صوته.

ـ لقد خرج من السيارة.. بحجة إراحة نفسه، فأخذت السيارة وتركته.

ـ أنت حقاً جريئة سنيوريتا.. يمكنني الآن أن أودعك. مامن أحد بجرأتك وقدرتك أو بإحساسك القوي بالحفاظ على النفس، يحتاج إلى مساعدتي المسكينة.

ارتفعت يده إلى حافة قبعته في تحية ساخرة، وأدار رأس الجواد. يا إلهي! إنه ذاهب! وركضت إلى الأمام.

ـ سنيور! أرجوك! لا يمكنك تركي هنا هكذا!!

حركتها أجفلت الجواد، فرفع رأسه إلى الأعلى وبدأ يتراجع جانبياً، لكن سرعان ما سيطر عليه راكبه.. وقال ببرود:

ـ لقد قلت لك أين توجد الطريق سنيوريتا، والسير هذه المسافة ليس بعيداً عن قدرتك. تبدين شابة وفي صحة جيدة.

نظرت أريكا إليه، تتساءل كيف يمكن لها أن تجده جذاباً.. وجهه كان أسود مخيفاً تحت ظل قبعته..

كرهته أكثر مما حلمت يوماً أن الكراهية ممكنة.. لكنها جعلت صوتها يتوسل:

ـ أنا متعبة، وجائعة، وخائفة جداً، سنيور. لا بد من وجود مأوى أو شيء من هذا القبيل.. وسأدفع لك لتأخذني إلى هناك!

ـ ألست خائفة إذا طلبت ذات الثمن الذي طلبه السائق؟ لن تستطيعي الخلاص مني بذات السهولة.

ابتلعت ريقها:

ـ هذه مجازفة يجب أن أقبل بها.. أنا.. لا أريد قضاء الليل لوحدي في الشاحنة.

ـ أظنك قد جازفت بما فيه الكفاية سنيوريتا.

لهجته كانت ناعمة وباردة كالجليد.. وارتجفت أريكا داخل السترة.. هذا جانب من شخصية مانويل لم تره من قبل.. ليس هناك الآن أي أثر للفتنة والمزاح المرح الذي كان يحرجها ويثير اضطرابها.. وضمت يديها معاً، ترد بصوت منخفض:

ـ أرجوك.. ساعدني.

ساد الصمت.. ثم هز كتفيه قليلاً:

ـ حسن جداً.. سنجد الليلة لك مأوى، وفي الصباح سنرى ما يمكن فعله. هل أنت مسافرة لوحدك؟

ـ لا.. سأنضم إلى بعض الأصدقاء في مونتراي، وكنت متجهة إلى هناك.

مرة أخرى بدا المرح في صوته:

ـ أنت إذن بعيدة جداً عن الطريق سنيوريتا. أنت الآن في طريقك إلى لاماريبوسا، هاسيندرا دون فيليب أنريكو دو ميندرا. ربما سمعت به؟

أجبرت نفسها أن تقول بطريقة عفوية:

ـ أظنني سمعت بالاسم.. أجل.. هل هذه أرضه؟

ـ إنها كذلك.. وسيكون مكتئباً جداً لو عرف أنه كان يأوي دون معرفة منه ضيفة فاتنة. ربما يجب أن آخذك إلى الهاسيندرا.

ـ لا.. أرجوك سنيور.. فأنا لست في حالة ملائمة للقاء ذلك الملاك الإسباني العظيم. لقد تصرفت كالحمقاء، وأعرف هذا.. لو استطعت فقط أن ترشدني إلى حيث أحصل على وسيلة نقل إلى مونتراي. سأكون ممتنة لك إلى الأبد، لكنني لا أريد لقاء دون فيليب.

ـ حسن جداً.. ماذا لديك من متاع؟

ـ حقيبة فقط.

ـ إذن أقترح أن تحضريها كي نذهب.

كانت تخرج الحقيبة من السيارة، حين صدمتها فكرة.. سيتعرف إلى الحقيبة فوراً. لكنها لن تستطيع الادعاء أنها أضاعتها.. ولا بد أن هناك

ملايين الحقائب التي تشبهها. ووضعتها على كتفها.. إذا ازداد الأمر سوءاً سوف تتحدى الجميع بهذه الحجة.

لكنه لم ينظر إليها.. وقال:

ـ للجواد طباع جيدة.. ولا داعي للخوف منه.

انحنى يلف ذراعه حول خصرها، ورفعها لتجلس أمامه.. وحاولت الاحتجاج:

ـ أعرف ركوب الخيل سنيور.

ـ لقد سبق ونوّهت بقدراتك سنيوريتا. لكنني على عكس السائق التعيس، أفضل أن أستبقيك تحت ناظريّ، ويجب أن أحذرك أن أميغو يتقبلك على ظهره لأنني هنا.. لكن لا تحاولي ركوبه لوحدك.

نظرت أريكا إلى الأمام، مسرورة لأنه لن يستطيع قراءة تعابير وجهها.. وسمعته يقول ساخراً:

ـ استرخي سنيوريتا.. لقد قيل لي إن الاغتصاب فوق صهوة الجواد ليس خطيراً فحسب، بل مستحيل، فلا داعي للخوف.

لم ترد، وأمسكت بطرف السرج لتثبت نفسها.

كل ما استطاعت التفكير فيه هو ألاعيب القدر العجيبة، التي أعادت مانويل إلى حياتها مجدداً، بعد أن كانت واثقة أنها لن تراه مرة أخرى.. رفعت رأسها إلى السماء بنجومها اللامعة، وعلقت كأنما لنفسها: لا قمر.

ـ للأسف.. لا.. لا شرفة.. لا فرقة «مارياشي».

أحست بالسعادة لأن الظلمة كانت تخفي تصاعد اللون الأحمر إلى وجهها، وقالت ببرود:

ـ كانت مجرد ملاحظة.

ـ والتنهيدة؟

أليس هناك حركة تفوته؟

ـ لنقل إنني أمضيت يوماً سيئاً فحسب.. أميغو جواد جميل.. واثق الخطى.

ـ إنه يناسبني كثيراً..

صمت آخر.. ترددت أن تخترقه بالكلمات:

ـ قلت إن كل هذه أرض ميندرا.. لا بد أنها أملاك متسعة جداً.

ـ كانت فيما مضى، لكن معظمها الآن ملك للفلاحين الذين أعطوا حرية تملك الأرض، التي كانت يوماً مراعي للماشية وأخذت تنقلب إلى مزارع صغيرة.

ـ ألا توافق على سيادة الدولة؟

قال بعد صمت قصير:

ـ كل البشر يجب أن يعيشوا.. وبإمكان عائلة ميندرا الاستغناء عن الأرض. بعض الفلاحين يعمل بكد في حصصهم، لكن الآخرين لا يفعلون هذا.. يجدون الحياة صعبة ويفضلون البقاء فلاحين يبيعون تعبهم كما يشاؤون.

ـ كما تفعل أنت؟

ـ كما أفعل أنا.

كانت تتوقع أن يقول لها إنه مانويل دو بيبيتو، ابن عم دون فيليب العظيم.. ولم تجد معنى لإبقائه الأمر سراً.

تململت متعبة من الركوب هكذا، وسألت:

ـ هل المكان بعيد.. حيثما تتجه؟

ـ ظننتك معتادة ركوب الخيل.. لكن لا.. لن تعاني الكثير بعد.

ارتفعت معنويات أريكا قليلاً، وبدا لها ما سمعته مليئاً بالأمل.. منزل يسكنه مزارع، وعلى الأرجح زوجة وعائلة. طعام ودفء ومكان تلقي فيه برأسها.. لكن، أهم من أي شيء ناس آخرون.

أخذت تحدق في الظلام، تبحث عن نافذة مضاءة.. لكنها لم تجد سوى العتمة، وهذا ما جعلها أكثر دهشة حين قال مرافقها:

ـ محتك انتهت سنيوريتا.. لقد وصلنا إلى حيث نقصد.

توقف أميغو، وأخفض رأسه، يقضم عشباً غير مرئي. وأحست أريكا أنها تهبط إلى الأرض بجانبه.

ترجل مرافقها وربط اللجام بغصن شجرة قريبة.. نظرت حولها

بعجز:

ـ ما هذا المكان؟

أطبقت يده حول ذراعها، وحثها بلطف وحزم معاً، إلى الأمام. وأدركت أنها لو كانت وحدها لتخبطت وهي تدخل.. كان مجرد شكل أعتم بقليل مما حوله وأكثر صلابة من الظلام حولها. لا أضواء، لا كلاب تنبح، ولا ترحيب ودود من أي نوع.. في الواقع بدا المكان.. مهجوراً.

قالت بحدة: أين الجميع؟

قال ببرود:

ـ ليس هناك سوانا.. صدقيني «تشيكا» حين تشاهدين حجم الكابينة ستكونين ممتنة.

أحست بكل شيء عدا الامتنان.. وتراجعت إلى الوراء وهو يفتح الباب الذي أصدر صريراً مخيفاً.

ـ خائفة؟

إنه يسخر منها ثانية:

ـ انتظري هنا إذن بينما أشعل المصباح، وأطرد أي متطفلين قد يكونوا اقتحموا منزل بينيتو في غيابه.

احتجت:

ـ لا داعي لهذا.. من حق النّاس الآخرين اللجوء ليلاً و...

قال بلطف:

ـ لم أكن أتكلم عن ناس..!

سرت قشعريرة في أوصالها وهي تتصور فجأة الرعب المنتظر هناك في الظلام.. جرذان ربما.. أوه.. أو عقارب.. أو حتى.. أفاعي!

سمعت صوت إشعال عود ثقاب، ورأت بصيص نور انتشر بالتدريج ليصبح شعلة دائمة. لحظة تالية وظهر نور آخر في زاوية المكان. وخطت أريكا مترددة من فوق العتبة تنظر حولها. لم يكن ما رأته يستهوي النظر. كان هناك مدفأة حطب سوداء مشيدة في الجدار، ووعاء طبخ صدىء وفي الجدار المقابل تجويف عميق يمكن أن يغطى بستارة مع قائم خشبي مثبت

داخلها. يعمل كسرير. وستارة مهترئة تتدلى فوق التجويف. أول مصباح أشعله مرافقها كان يتدلى من السقف.. أما الثاني فكان على طاولة خشبية مربعة في الزاوية.

بعض من مشاعرها لا بد ظهر على وجهها، فقد ضحك مرافقها بهدوء:

ـ وماذا توقعتِ سنيوريتا توريستا؟ غرفة في فندق كونتنتال في مكسيكو سيتي؟

نظرت إليه بعينين منسعتين دون وعي منها. كان قد خلع قبعته والرداء العباءة التي كان يرتديها خلال الركوب.. البذلة العصرية الأنيقة التي كان يرتديها ذهبت، وكان يرتدي بدلاً منها بنطلوناً أسوداً ضيقاً، وحذاء ركوب ممتازاً وقميص حريري أسود يغطي كتفيه وصدره.. ولم يعد يبدو الرجل العابث الذي عرفته، بل رجل عمل، وأدركت أنه هكذا مهيب أكثر.. وأدركت بحذر أنه يراقبها بالطريقة المقيمة ذاتها عند أول لقاء لهما، وكأنه يتسلى بشيء من الغموض.

للحظة، التقت نظراتهما بتحدٍ صامت، ثم هز كتفيه وتحول عنها. قال:

ـ سأشعل ناراً، هناك بعض الطعام في سرج جوادي. ربما تحضرين لنا وجبة وأنا أهتم بأميغو.

مرة أخرى تسرعت في الكلام:

ـ من أين تعلمت الإنكليزية بهذه الطلاقة؟

ـ من هنا وهناك.. أينما استطعت.

أجبرت نفسها على الضحك:

ـ أنت لست من النوع الاجتماعي.. أتخفي شيئاً؟

ـ لا.. تشيكو.. وأنت؟

اختفى عبر باب في مؤخرة الكوخ تاركاً إياها في دهشتها، حين عاد كان يحمل حزمة حطب وضبها ببراعة في الموقد، وأشعلها بعيدان الثقاب.. وعلقت أريكا، وهي تستعيد رباطة جأشها قليلاً:

ـ أنت بالتأكيد تعرف كيف تتصرف وكأنك في بيتك. لقد ذكرت اسم بينيتو.. هل يملك هذا المكان، وهل هو صديق لك؟

وقف ينفض يديه معاً: أجل.. كان.

ـ وهل مات..؟ أنا آسفة.

ـ إنه حي.. سأذهب لأحضر الطعام.

جلست على أحد المقاعد الخشبية، ومددت ساقيها أمامها.. لم يكن هناك دفء حقيقي بعد، لكن تراقص ألسنة اللهب كان يشيع الأمان.. وهي تحتاج إلى الارتياح، فتوترها كان يزداد عمقاً مع كل لحظة تمر.

لقد تغير مانويل.. وليس فقط في التفاصيل الخارجية، كالثياب، فأخلاقه تغيرت كذلك. أصبح أكثر برودا وحدّة. إنه يتصرف كرجل معتاد على إعطاء الأوامر كي تطاع.

فكرت: لكنه طبعاً يدير المزرعة.. ولقد عاد إلى منطقة حكمه، وهذا يفسر كل شيء.

لكن تفسيرها كان يحتاج إلى قناعة، وتعرف هذا.. هناك شيء خاطىء في العمق.. شيء يراوغها.

ـ كوي پاسا؟.

استدارت بعنف، لتجده يراقبها عن الباب، مقطب الجبين:

ـ أنت شاحبة جداً.. هل أنت مريضة؟

هزت رأسها وحاولت أن تضحك بضعف:

ـ ردة فعل.. أعتقد.. كان يوماً متعباً.

وقد تكون ليلة متعبة أيضاً.. لقد حاولت تجنب النظر إلى السرير في التجويف.. إنه أبعد من أن يكون ملاذاً آمناً.

بجهد، حولت اهتمامها إلى الأشياء التي وضعها على الطاولة.. علبة «يخنة» ما، مع فتاحة علب.. علبة قهوة.. كوب معدني وطبق.

التقى بنظرتها، وارتفعت زوايا فمه في ابتسامة ساخرة:

ـ آسف لعدم وجود كاتو لدي.. وأعتذر كذلك لوجود طاقم سفرة واحد..

أكدت لنفسها بصمت أن هذا لا يقلقها بقدر ما يقلقها واقع وجود سرير واحد.

أشار إلى الباب الآخر في مؤخرة الغرفة:

ـ هناك بئر في الفناء الخلفي. سأحضر بعض الماء.. وهناك كوخ صغير كذلك لراحتك.

تمتمت: شكراً لك.

ضحك.

ـ الكلمة هنا هي «غراتسيا»... ربما بعد تناولنا الطعام أعطيك درساً بالإسبانية.. لا يمكن أن تسافري في بلادي بالجملتين اللتين قلتهما حتى الآن.

ردت بضعف: لا..

أخذت تفكر ما إذا كانت ستخلع سترة السائق أم لا، وقررت أن لا تفعل..

كان في أحد زوايا الغرفة مغسلة، مكونة من وعاء صفيح وأنبوب تصريف. وقررت أن من الأولويات أن تغسل وعاء الطبخ ولو بشكل بدائي. كان هناك إبريق قهوة مطلي بالأبيض عتيق لكن يمكن استخدامه، تحت المغسلة. وهزت رأسها وهي تنظر إلى داخله.. تحضير هذه الوجبة سيكون تحدياً لها..

مع ذلك، ثبت لها أنها أسهل وأبسط مما تصورت.. حين عبقت رائحة اليخنة اللذيذة في أرجاء الغرفة، نسيت أريكا وساوسها وسمحت لنفسها أن تدرك كم هي جائعة.

كانت تعرف أنه يراقبها.. بل الواقع أنهما كانا يراقبان بعضهما، يقيسان حجم بعضهما كخصمين يعلمان أن المعركة على وشك أن تبدأ. شاهدته وقد أدخل بطانية ملفوفة، ورماها على السرير، ثم انحنى فوق الطبخ.. وكانت مسرورة للنار التي تعطي عذراً لاحمرار وجهها.

حاولت أن تذكر نفسها بكل الأوقات التي كانت فيها لوحدها مع هيوغو.. حين كانت قريبة بين ذراعيه.. لكن، حتى يومها، كانت تشعر

www.elromancia.com

أنها مسيطرة تماماً على الموقف.

لكن ليس مع هذا الرجل.. إنه قانون بحد ذاته.

عاد إلى الغرفة يدندن لنفسه بنعومة، وتعرفت على اللحن.. إنه اللحن الذي عزفته فرقة الماريناتشي لهما في مطعم الموتيل.. وعلا وجهها الشحوب وهي تسمعه.

أوقف اللحن ليسأل:

ـ هل الطعام جاهز؟

ـ أجل.. لكنني لا أعرف كيف ستتمكن..

ـ وجدت شوكة وملعقة في سرجي، خذي الملعقة.

كانت يداها ترتجفان وهي تحاول سكب اليخنة في الطبق.. لكنها تمكنت من هذا أخيراً، ووضعته على الطاولة بينهما.. أخذت الملعقة، وأجبرت نفسها على الأكل، بينما تفكيرها يتسارع بجنون.

إنه لم يعرفها.. هي بالنسبة له سائحة غبية تريد من ينقذها بعد أن أوصلت نفسها إلى موقف حرج.

سأل:

ـ أنت هادئة جداً.. هل نَفَدت الأسئلة منك تشيكا؟

حاولت أن تبتسم: أخبرني المزيد عن بينيتو.

هز كتفيه:

ـ كان صديقاً.. وابن صديق.. حين كان في الجامعة شغلته النظريات السياسية حول المساواة، ورأى أن من واجبه العمل مع الفلاحين والقتال لأجل حقوقهم، حتى أنه حاول أن يكون واحداً منهم.. لكنه لم ينجح، كما ترين.

ـ وكنت تخالفه الرأي؟

ـ لا.. كنت أحترم وجهة نظره، مُثُلَه العُليا، لكن إصلاحات الحكومة بالنسبة لتوزيع الأراضي لم تكن كافية له.. لم تكن تتحرك بسرعة.. فبدأ يقول إن الملاكين الذين يرفضون تسليم أراضيهم بإرادتهم يجب أن تنزع منهم وبالقوة إذا لزم الأمر.. ولم يتوقف عند حدود الكلام.. بل قاد مجموعة

نحو مقاطعة إلى الشمال من هنا، وكانوا مسلحين، أطلقوا النار وأصيب وكيل الأملاك، هكذا وضع بينيتو نفسه خارج القانون.

سألت أريكا بصوت أجش:

ـ وماذا حدث؟ هل أذعن المالك لمطالبهم؟ هل سلمهم الأرض؟

التوى فمه قسوة:

ـ سي.. الأبله المعتوه!

توقف قلبها عن الخفقان لحظة.

ـ ألن تفعل مثله؟

رد بصوت ناعم منخفض:

ـ لا.. ما أعطيه، أعطيه.. لكنني لا أسمح أن يؤخذ مني شيء عنوةً.

مضت تنظر إليه، تحاول أن تقول لنفسها إنها تصورت لهجة الشر في صوته.. ثم قال:

ـ تبدين متوترة تشيكا..؟

أنكرت بسرعة: لا.

ـ لا تكذبي عليّ. أستطيع رؤية الخوف في عينيك. قلت لك مرة إنني أعرف الكثير من عيني المرأة، وأنا مسرور لأنك خلعت نظارتك أخيراً سنيوريتا ريردون.

أطبقت حنجرتها رعباً.. وقالت:

ـ كيف.. كيف عرفت اسمي؟

ـ ألا زلت راغبة في اللعب؟ بينما كنت نائمة في أول يوم لنا، نظرت إلى حقيبتك ووجدت جواز سفرك.. كان عليّ أن أعرف من هي المتخفية بدور نيڤيل سانتوس.

ـ لكن كيف عرفت؟ أنت لم ترَ نيڤيل منذ كانت طفلة.

هز رأسه:

ـ مخطئة سنيوريتا.. أترين؟ كنت أنا كذلك ألعب لعبة معك.. ابن عمي مانويل هو الذي لا يعرف نيڤيل.. وأنا أعرفها جيداً.

أحست أريكا أن جدران الكوخ كانت تطبق عليها.. ودفعت المقعد

الخشبي إلى الخلف بعنف أوقعه أرضاً. ووقفت تقول: من أنت؟

وقف بدوره.. بدا كالبرج الشامخ أمامها:

ـ أنا.. سنيوريتا؟ أنا واثق أنك عرفت.. أنا فيليب أنديكو دومينترا.

سمعت نفسها تشهق.. ورأت الغضب الأسود الذي بالكاد يسيطر عليه في وجهه.. والبريق في عينيه.. ورأت يديه تتقوسان كالمخالب وهو يمدهما نحوها.. تذكرت ذلك الصقر المنقض على فريسته من السماء الزرقاء الصافية.. وصرخت بأعلى صوتها وهي تتهاوى في الظلام الدوّار.

* * *

٤ ـ سجن الفراشات

عاد الوعي إلى أريكا ببطء.. وأحست بالغثيان وضيق الصدر.. ثم بكوب يدنى من شفتيها، وصوت يقول لها «اشربي» ثم سائل حار يُلهب فمها وينزل ساخناً عبر حلقها. تأوهت قليلاً وحركت رأسها يميناً ويساراً محاولة التنصّل، لكن الذراع الممسكة بها كانت لا تتزحزح، وكانت بطبيعة الحال عاجزة عن أية مقاومة تُذكر.

أخيراً فتحت عينيها.. كانت مستلقية على السرير.. أدارت رأسها بقلق تنظر إلى الغرفة. كان المصباح على الطاولة خافتاً، يوفّر مع لهيب الموقد، الإنارة الوحيدة.

كان هناك.. آسرها.. عدوها.. يجلس إلى جانب النار، يحدق بألسنتها. ثم، وكأنه أحس أنها تحركت، فاستدار ينظر إليها.

ولاحظت أمراً آخر.. حقيبتها أفرغت.. مالها، جوازها وتذاكر سفرها، مكوّمة على الطاولة..

قام فيليب أنديكو دو ميندرا عن المقعد الخشبي وتقدم عبر الغرفة، فأشاحت بوجهها عنه، وأغمضت عينيها كي لا تراه.. دون وعي، تقطرت دمعة من تحت رموشها، وتحدّرت على خدها.. فقال ساخراً:

ـ أتبكين تشيكا؟ لماذا؟ على خطاياكِ السابقة أم على نتائجها المستقبلية؟

قالت بصوت منخفض:

ـ أستطيع أن أشرح لك.

ـ أنا واثق من هذا.. أنا واثق أن مخيلتك الواسعة تستطيع أن تختلق على الأقل دزينة تفسيرات.. لكنني هذه المرة أريد الحقيقة. أين هي نيقبل

www.elromancia.com

سانتوس؟

ـ سألة منك الآن.. كما أرجو.

ـ تتكلمين وكأنني أمثل خطراً على نيڤيل.

قالت بمرارة:

ـ ألست خطراً عليها؟ أعتقد أن مغروراً مثلك لا يمكنه أن يتصور أن عرض زواج منه لا يستطيع أن يرضي غرور أية امرأة، ولن يخطر ببالك أن نيڤيل ستجد مسألة الزواج منك مقيتة جداً.

لمعت العينان السوداوان:

ـ تتكلمين وكأنني كنت أخطط لجرها إلى مذبح الكنيسة من شعرها.. أقسم أنني ما كنت أنوي هذا.. كنت أعتقد أنها متقبلة لفكرة زواجنا كما أتقبلها أنا.. لكنني لم أحسب حساب التأثيرات التي وقعت تحتها منذ غادرت الدير.

شهقت أريكا: إذن.. تعرف بهذا؟

رد بنفاد صبر:

ـ طبعاً أعرف.. إنها تحت وصايتي.. ومن واجبي أن أعرف متى غادرت المسكن الذي وفّرته لها. على أي حال.. أكد لي مدير «كيمكو» أنك والفتاة الأخرى محترمتان، وأن نيڤيل ستستفيد من صحبتكما.. وكم كان مخطئاً!

ـ إذن تعرف كذلك أننا التقينا نيڤيل في كيمكو؟

ـ طبعاً.. لقد رتبت لها مسألة العمل هناك على أساس مؤقت.. لأنها كانت مصرة على أن تعمل..

عَلَتْ ابتسامة أطراف فمه، ثم:

ـ أتصور أنك تعرفين ما حدث. لقد أعطيت الوظيفة كخدمة لي لأنني أحد أفراد مجلس الإدارة للشركة التي كانت تعمل لها «كيمكو» وتصورت أن من دواعي احترامي أنها لم تطرد منذ اليوم الأول.

قالت بمرارة:

ـ معلوماتك جيدة.. وعدم معرفة سكوت بها هو من حسن حظ

نيڤيل.

ـ إذا كنت تشيرين إلى بريسكوت كاميلز، فأنا عارف بزياراته منذ البداية.. لكنني لم آخذها على محمل الجد.. ولم أخف على الطفلة من بعض العبث. أنا أعرفها جيداً، كنت واثقاً أن الأمر لن يعدو كونه أكثر من ذلك.

رفعت ذقنها متحدية:

ـ إذن أنت على خطأ.. لا بد أن سكوت أصبح زوجها الآن.

قال ببرود:

ـ لن أكون واثقاً جداً من هذا لو كنت مكانك. هناك إجراءات رسمية مطولة قبل حصول أي زواج بين مكسيكي الجنسية وأجنبي.

سمعته بإحباط.. الخطوات القانونية للموقف لم تخطر ببالها.. لقد سمعت كثيراً عن سهولة الطلاق والزواج في المكسيك، بحيث أنها لم تدرك أن بالإمكان وجود صعوبات بالنسبة لعروسين من جنسيتين مختلفتين. وأفلتت منها شهقة بكاء صغيرة، كل شيء إذن كان دون فائدة.

قال:

ـ لا تحسبي أنك ستفلتين من عواقب فعلتك بمثل هذا التصرف الخانع.. ماذا حصل لروحك المعنوية المرتفعة التي أظهرتها في اليومين الماضيين؟

ـ أنا لا أبكي لأجلي.. بل لأجل نيڤيل.

ـ إذن وفري دموعك، يبدو أنها ليست بحاجة إليها.

ـ لا؟ ومتى ستذهب إلى مكسيكو سيتي وتجرها غصباً من الرجل الذي تحبه؟ متى ستدمر حياتها؟

هز كتفيه:

ـ لقد أخذت نيڤيل زمام مستقبلها بيدها.. أدمرت حياتها أم لا، مسألة تتعلق بها وبذلك الرجل الذي اختارته.. على أي حال لقد تجاوزت السن القانونية.. وهي لذلك لم تعد ضمن مسؤوليتي، ولن أتدخل.

استوعبت أريكا هذا بارتياك.

ـ لكن.. ألن تهتم أبداً؟

قال بلطف:

ـ أوه.. بلى تشيكا.. أهتم بأنني كنت مغفلاً. أهتم أن تكون نيڤيل سمحت لترتيبات زواجنا أن تمضي قدماً، دون أن تعلمني أنها لم تَعُد تريد الزواج مني. أهتم أن يجبرها شخص غريب على الابتعاد عن حياتي، وأن تضرب بخططي عرض الحائط.

ـ لكن ما نفع كل هذا؟ أنت لم ترغب بها حقاً.. لا يمكن أن تكون!

قال باكتئاب:

ـ لقد توافقت عائلتانا على هذا الزواج.. ربما كلانا لم يبتهج لهذه الفكرة.. لكن كان من المتوقع أن نكون سعيدين. لقد آن لي أن أتزوج، لدي عدد كبير من المنازل، لكن ليس عندي بيت حقيقي، أحتاج إلى ولد أنقل إليه ميراثي.. أحتاج إلى شيء من الحيوية والاستقرار في حياتي، وأحسست أن من الممكن أن تعطيني نيڤيل هذا.

لمعت عينا أريكا:

ـ تبدو لي هذه صفقة من جانب واحد.. ماذا ستحصل نيڤيل بالمقابل لإنجابها الأولاد وإحاطتك بالحيوية والاستقرار؟ ذلك النوع من العلاقة الخالية من الفرح والحب، التي توارثتها عائلتك منذ أجيال؟

التوى فمه:

ـ لا تتكلمي عن عائلتي هكذا سنيوريتا.. لسانك سيوقعك في المهالك.

ـ ألا تحب سماع الحقيقة؟

هبطت يداه على كتفيها، وشدها إلى وضعية الجلوس:

ـ وماذا تعرفين عن الحقيقة؟ أنت من قمت بدور مزيف منذ رأيتك.. ماذا تعرفين عن الحب؟ تتكلمين كثيراً تشيكا.. لكن عينيك تقولان لي إن الحب لم يعذبك، مثلك مثل نيڤيل.

كان كلامه كذر الملح على جرح مفتوح. صاحت باحتجاج:

ـ هذا غير صحيح.. لقد أحببت من قبل.. حباً عميقاً مشبوباً.. ولا ;لت أحب.. لهذا قررت مساعدة نيڤيل لتكون سعيدة، فأنا أعرف أنها

تستحق أفضل من الزواج الباهت المتوحش الذي كنت تعرضه عليها.

اتسعت ابتسامته:

ـ إذن أنت تظنيني متوحشاً، صديقتي؟ نيڤيل ما كانت ستجدني هكذا.. ولن تجديني أنت كذلك.

جذبها إليه بقسوة حتى أنها لم تعد قادرة على التنفس، ولا على التفكير بصفاء ذهن.. وتصاعد الذعر في نفسها، فأخذت تضربه بقبضتيها على كتفيه.. لكن لا قبضته ولا عناقه المتوحش تراخى ولو للحظة.. وتصاعد الأنين من حلقها وهو يلوي شعرها بيده، يشد رأسها إلى الوراء.

حين استطاعت أن تتكلم، قالت متوسلة: لا!.. أرجوك!

رفع رأسه قليلاً لينظر إليها، وعيناه تلمعان سخرية، وشيئاً آخر خافت منه:

ـ من المتكلم الآن؟ المرأة المتمرّسة، أم العذراء الخائفة؟ أريد الحقيقة!

لكن حنجرتها انقبضت، لتجعل الكلام مستحيلاً. ولم تستطع سوى أن تهز رأسها تنظر إليه بعينين متوسلتين دون كلام.

بلطف أعادها إلى الفراش.. ثم استوى، عيناه تطوفان ببطء واكتئاب على جسمها النحيل. وأحست أريكا بالإذلال لنظرته الصارمة.. ولكنها تستحق هذا الإحساس بالعار.. كما تستحق تماماً كل كلمة خشنة رماها بها، وأكثر.. مهما كان رأيها الخاص بدوافعه أو أخلاقه، ليس من حقها مطلقاً أن تتدخل.. وله الحق أن يغضب.. لكن، ليس بهذه الطريقة. يا إلهي..! ليس هكذا.

قال بهدوء:

ـ لقد أخطأت في حقي كثيراً أميغا.. لقد أهنتني، جعلتني أخسر ماء وجهي.. فهل أنت مستعدة للتعويض؟

حاولت أن تبدو شجاعة: إذا استطعت.

ـ أوه.. تستطيعين.. أحتاج إلى زوجة كما قلت لك.. والشكر لك لأن الفتاة التي اخترتها ضاعت مني.. أقل ما يمكنك فعله هو أن تحلي محلها.

للحظات بقيت مستلقية تحدق إليه مشدوهة. دماغها يحاول تفهم ما قاله.. ثم بدأت تهز رأسها ببطء:

ـ لا.. لا يمكن هذا.. لا أستطيع! أنت غير جاد!

قال ساخراً:

ـ لا؟ ربما عَرضٌ آخر قد يُقنعُكِ.

صاحت مذعورة: لا!

ـ إذن قولي إنك ستتزوجينني، وسأنتظر كسيد مهذب إلى أن تصبحي لي شرعاً.

ـ لكنك لا تريد الزواج بي.. لا يمكن.. نحن لا نعرف بعضنا.. أنت لا تحبني..

وتعثرت الكلمات ببعضها.. كانت تعرف أنها لا تتكلم بشيء من المنطق.. لكن ما هو المنطق في هذا الموقف كله؟

قال:

ـ لقد أغضبتني كثيراً.. أعترف.. لكنك أثرت فيّ مشاعر أخرى، يمكن أن تخفف من ثورة غضبي.. لماذا في رأيك لم أكشف تنكرك على الفور؟ لماذا تركتك تظنين أنني مانويل؟ لأنك أثرت اهتمامي.. لأنك حركت دمي.. قراري بمرافقة نيقيل شمالاً بنفسي كان في آخر لحظة دافعه الإحساس بالواجب.. أحسست أنني مدين لها، بأن أقضي بعض الوقت معها، أن أتعرف إليها أكثر.. وربما لأتودد إليها إذا كانت راغبة.

ردت بمرارة:

ـ يا للطف.. أنا واثقة أنك كنت ستذهلها.

قال ساخراً:

ـ هذا إطراء منك تشيكا.

لكنها، عرفت أن الأمر ليس هكذا.. إنه غاوي نساء متمرس، ولو مارس ذات الطريقة مع نيقيل، لكانت طوع أمره قبل أن يصلا «لاماريبوسا».

بعد صمت قصير قال:

ـ لكن.. يجب أن أعترف، لم أكن متلهفاً كثيراً للرحلة إلى أن توقفت السيارة خارج الدير ورأيتك تنتظرينني. للحظة لم أكن واثقاً من الذي يجري.. ثم تكلمت وعرفت أن في الأمر حيلة لخداع ابن عمي المسكين.. وأصبح تشوقي لقلب الطاولة في وجهك لا يقاوم.

هزت رأسها:

ـ لكن.. ألم تكن قلقاً على نيقيل.. من أن تكون أصيبت بأذى بطريقة ما؟

ـ لو كان الأمر هكذا لكان هناك رسالة تطلب الفدية في انتظاري، وليس فتاة متنكرة.. لا.. لقد عرفت على الفور أنك واحدة من الفتاتين اللتين تشاركانها الشقة.. وأنك الإنكليزية بينهما.. لأنني كنت أعرف أن الأميركية لا تتكلم الإسبانية جيداً. أما أنت فممتازة، ويجب أن أهنئك.

ابتلعت أريكا ريقها:

ـ لكن.. لماذا تركت.. الخدعة.. تستمر هكذا؟

ـ لأنني كنت ضجراً.. وقررت أنك قادرة على رفع السأم عني.. وأن توفري لي بعض التسلية خلال الرحلة.. وهذا ما حصل أميغا.. لكن لم يكن قد خطر ببالي أن فتاة يمكن أن تورط نفسها في مغامرة كهذه، تكون فتاة بريئة مثلك.

التقت عيناه بعينيها، فأحست بالصدمة تسري في جسدها، ثم أكمل:

ـ أريدك أريكا.. وأنوي أن أحصل عليك.. برابط الزواج أو بدونه.. الخيار لك.

ـ وإذا قلت إنني لن أتزوجك؟

هز كتفيه بخفة:

ـ إذن.. بدلاً من لاماريبوسا، سنذهب إلى مكان آخر.. إلى منزلي في آكابولكو.. هناك، ليلاً، تعجّ غرفة النوم بأصوات المحيط.

أحست أن قلبها أخذ يخفق بجنون:

ـ أمر مذهل.. أنا واثقة أن كل صديقاتك يجدن هذا مثيراً.. لكنني لن أنضم إلى لائحتهن.. أليس هناك خيار آخر عدا الخيارين اللذين ذكرتهما؟

ـ أوه.. أجل.. هناك مسألة صغيرة: الشاحنة المسروقة.. وستضطرين إلى أن تثبتي براءتك من تهمة السرقة.. سجوننا ليست مريحة.. كما لا بد عرفت منذ زمن بعيد.. من ناحية أخرى، قد تستعاد الشاحنة، ويعوض على السائق انزعاجه وقلقه الذي سببتهما له، وقد أقنعه بأن لا يقيم دعوى عليك.. أو سأغسل يدي من المسألة كلها، وأسمح للعدالة أن تأخذ مجراها معك.

احتجت وقد جف حلقها:

ـ لكنني لم أسرقها! أنا.. استعرتها فقط.. كنت سأعلم السائق أين تركتها.. و...

ـ كيف؟

ساد صمت طويل، ثم قالت بصوت أجش:

ـ لكن.. عائلتك.. ماذا ستقول؟ يعرفون أنك تنوي الزواج من نيقيل.

ـ سي.. لقد حدث اهتياج عام اليوم حين أبلغتهم أنني غيرت رأيي.. زوجة عمي غمرها الفرح، وأخذت الأمر كمؤشر على أنني سأكافئها بطلب يد ابنة عمي، ابنتها آلانا. لكنني لم أفعل، واضطررت إلى أن أحبط آمالها مرة أخرى بطلبي منها تحضير غرفة لك.. ولم يمض وقت طويل بعدها حتى تلقيت مخابرة هاتفية مذعورة من خوزيه.

قالت بشيء من الإحساس بالذنب: أوه..

ـ أوه فعلاً تشيكا.. لا أعرف كيف كان غبياً إلى هذا الحد، خاصة بعد أن نبّهتُه أن يكون محترساً. التذاكر والمفكرة في حقيبتك جعلت نياتك واضحة.

عضت شفتها:

ـ وهل أخبرت عائلتك عني؟ وعن هروبي؟

ـ بعضاً من القصة وليس كلها.

فتحت يديها:

ـ إذن لا شك أنك ترى كم الأمر مستحيل، لن يتقبلونني كـ..

كزوجة مناسبة لك.

رفع كتفيه ساخراً:

ـ تيا أنتيا لن تتقبل أية امرأة أختارها. لكن لا تخافي منها.. أو من أي أحد منهم.. مانويل وخوزيه وحدهما يعرفان بخدعتك، ولن يشير إليها أحد إذا عرفا أن هذه رغبتي.

قالت بمرارة:

ـ ما أروع أن يكون للمرء سلطة كهذه على الناس.. لكن لا تتوقع أن تنجح معي.. فأنا أحتقرك وأكرهك وكلّ ما تمثل.. وسأفعل هذا دائماً.. هل تريد فعلاً أن تتزوج امرأة تجدك.. بغيضاً؟

ـ لا.. ولكنت ترددت كثيراً لو آمنت أن هذا صحيح.. لكنني لا أصدقك أريكا.

مرت يده على كتفها ثم انحدرت إلى ذراعها.. فأحست بأنفاسها تتسارع دونما قدرة على ضبطها.. وقال بصوت أجش:

ـ أنكري هذا الآن.. أنكري أنني لا أستطيع جعلك ترغبين بي.. إذا كنت تجرؤين.

ولم تجرؤ.. بل قالت بصوت خشن:

ـ أرجوك.. كفى!

ـ إذن عديني أن تتزوجيني..

غرزت يدها في الفراش وهي تحاول مقاومة مشاعرها.. وهمست:

ـ أجل.. سأتزوجك..

للحظات بقي جامداً. ثم، ابتعد عنها وقال بصوت متردد:

ـ لقد تكلمت في الوقت المناسب كويريدا.. يا إلهي أريكا.. ديوس.. قاوميني قدر ما شئت نهاراً.. لكن في الليل، وبين ذراعي، ستفعلين ما أريد.. وتكونين ما أريد.

سمعته يتجول في الغرفة.. ففتحت عينيها قليلاً.. كان يؤجج النار، والمصباح على الطاولة منطفىء.. وهي تراقبه، استقام وتقدم إلى الكوة في الجدار، وجلس على حافة السرير الخشبي، وبدأ يخلع حذاءه.

قالت: ماذا تفعل؟

ـ أتحضر لأنام.. حان الوقت أن نرتاح قليلاً.

نظر إليها وابتسم لرؤية الارتباك الواضح على وجهها:

ـ لا تخافي كويريدا.. حذائي هو كل ما أنوي خلعه.. إلا إذا أصريت طبعاً.

بللت شفتيها الجافتين: لقد وعدتني...

رمى بنفسه إلى جانبها:

ـ وسأفي بوعدي.. لكنني لا أنوي قضاء بقية الليل على الأرض.. وهنا يمكنني أن أنام براحة معقولة. وأتأكد بالتالي أن تحافظي على وعدك.. فأنت مولعة جداً بالهروب تشيكا، لكن إذا نمت وذراعي حولك.. سأكون متأكداً أنك ستكونين هنا في الصباح.

أخيراً نام.. أخبرها بذلك تنفسه البطيء المنتظم.. لكنها لم تستطع النوم. فاستلقت في الظلام تنظر أمامها. ذراع فيليب كانت ثقيلة حولها.. وكرهت ما يعنيه هذا من وعد بالامتلاك.. لكنها خافت أن تدفعها عنها كي لا توقظه.

حين دخل أول نور للصباح من النافذة، أدارت وجهها قليلاً لتراقبه. إنه بعيد جداً عن صورة الوصي المترهل الذي تصورته.. أو ذلك «الغول» الذي كان يطارد نيقبل.. وهو مسترخ في نومه، مع لحية خفيفة على فكه، ورموشه الطويلة منثنية على خده، بدا أصغر من عمره.

لو أن نيقبل رأته هكذا، لتغيرت أمور كثيرة.. أما والحال كما هو، فهي وحدها من رأت القوة، الجاذبية، وأحست أنها مسحوقة بهما. جسدياً.. سيبقى دائماً السيد.. لكنها ستتمكن من مجابهته فكرياً.. وستفعل.

أخيراً لا بد أنها نامت.. فالشيء التالي الذي تذكره هو أن فيليب كان يهزها بلطف، فجلست متنهدة مع تدفق ذكرى أحداث الليل المنصرم.

قال:

ـ لقد حان وقت انطلاقنا.

كانت عيناها متسعتين وهي تنظر إليه.. كان عارياً حتى الوسط، متحضراً للاغتسال. أجبرت نفسها أن تنظر بعيداً، وسألت بصوت أجش:

هل هناك.. ماء؟

ـ لقد سخنت القليل لك، كويريدا.. وأنا أستخدم المياه الباردة.. فاغتسلي بينما أسرج أميغو.

ارتدى قميصه وأخذ يزرره وهو يخرج.

غسلت وجهها ويديها بسرعة.. كانت الطاولة خالية وحقيبة الكتف خاوية عدا مساحيق التجميل.. المال، التذاكر، جواز السفر، كل شيء تحول إلى ملكية فيليب كما يبدو.. ولم يترك لها أية وسيلة للإفلات.. وضعت البطانية المطوية على ذراعها وتقدمت من الباب.. كان الوقت ما زال في الصباح الباكر، والشمس عند الأفق ككرة برتقالية ضخمة.. كان الهواء بارداً لكنها تنشقته بامتنان.

برز فيليب يقود أميغو ويقول:

ـ هيا.. يمكن أن نصل لاماريبوسا وقت الفطور.

شهقت:

ـ بهذه السرعة؟ لكنها تبعد أميالاً!

ـ إنها أقرب مما تظنين.. يبدو أنك كنت تسيرين في دوائر.. هل كل متاعك جاهز؟

قالت ببرود:

ـ ما تركته لي، أجل. آه.. سترة السائق.. لا أستطيع تركها.

حين عادت، أخذها منها.. فاحتجت:

ـ كنت سأرتديها.

اشتد ضغط فمه:

ـ أنت لن ترتدي شيئاً يخص رجلاً آخر.. إذا أحسست بالبرد خذي هذا.

وأعطاها العباءة التي كان يلبسها ليلاً، فارتدتها على مضض.

مرتجفة بالرغم من دفء العباءة «البونشو» تذكرت أنها ستتزوج رجلاً

بالكاد تعرفه.. شخصاً لم تمض معه سوى ساعات.. وما يعنيه هذا أبقاها مفكّرة طوال الطريق إلى الهاسيندرا.

كان من المحتم وجود فريق استقبال ينتظر عند مدخل الهاسيندرا.. وأحست بحرارة يد فيليب تحت ذراعها، يحثها على التقدم.. على الجوانب، كان هناك بعض الخدم، يحاولون أن لا يبدو عليهم الفضول، لكنهم متشوقون بوضوح لإلقاء نظرة على الفتاة التي ستتزوج السيد سمعت فيليب يقوم بالتقديم:

ـ هل لي أن أقدم لك زوجة عمي الدونا أنتيا دو بيبينو، وابنة عمي آلانا وشقيقها مانويل.

تبيّنت العداء جلياً في العيون الأنثوية، وعرفت أن الترحيب القائم كان مجرد كلمات. لكن مانويل كان مختلفاً، فقد تقدم مبتسماً:

ـ سنيوريتا.. أرحب بك في هذا المنزل الذي سيصبح بيتك.

قالها بإنكليزية مترددة وركيكة اللكنة ونظر إليه فيليب بسخرية:

ـ لا تجهد نفسك أميغو.. إنها تتكلم لغتنا بطلاقة.

تقدمت دونا أنتيا، تنظر بوجه متحجر إلى أريكا:

ـ ما من شك أنك ترغبين في الذهاب إلى غرفتك سنيوريتا. لقد عينت كريستينا في خدمتك. متى جهزت ستأتي بك إلى غرفة الطعام لتناول الفطور.

وهي تسير نحو السلم تلحق بالفتاة الجميلة التي تقدمت بخجل بإشارة متكبرة من دونا أنتيا، حاولت أريكا أن تستوعب شيئاً مما يحيط بها.

وهما يقتربان، فكرت أن الهاسيندرا نفسها تشبه الحصن.. بناء متسع فسيح محمي بسور مرتفع.. جناح سكن العائلة، كما يبدو، مبني في باحة كبيرة حول فناء داخلي.. مع أجنحة منفصلة للضيوف والخدم. في الداخل، كانت الهاسيندرا واسعة جداً وباردة.. تردّ عنها حرارة الشمس مصاريعُ خشبية على النوافذ.. والأثاث قديم جداً من خشب أسود محفور.

لحقت كريستينا عبر رواق طويل متسع إلى زوج من الأبواب المتقابلة في نهايته. دفعت الفتاة أحدهما ووقفت إلى الخلف تترك أريكا تسبقها إلى

الداخل.

توقفت أريكا تنظر حولها، شفتاها منفرجتان بابتهاج. إنها غرفة واسعة، سحرها يكمن في بساطتها الكاملة. الجدران مطلية بلون عاجي شاحب، السرير واسع جداً.. له أربعة قوائم مرتفعة محفورة، وكسوة مطرزة من الحرير العاجي، مزين بفراشات خضراء، وردية، ذهبية وفضية. عند أعلى السرير، تتدلى قطعة قماش عريضة مطرزة بفراشة ضخمة، تحمل الألوان ذاتها التي على مفرش السرير.

إنها لاماريبوسا.. أو الفراشة.. لا شك!

لامست كرستينا المفرش المطرز باحترام:

ـ كانت هذه غرفة دونا كونستانزيا والدة دون فيليب سنيوريتا.. ومن قبلها، رحم الله روحها، كانت لجدته.. دائماً سيدات الهاسيندرا ينمن في هذه الغرفة.

أرادت أريكا أن تسأل: والسيد؟ أين ينام؟ ونظرت إلى السرير الواسع تتصور أجيالاً من العرائس الإسبانيات ينمن فيه، منتظرات، متسائلات، ما إذا كان الباب سينفتح ليدخل عليهن أزواجهن.

أعلنت كريستينا بفخر:

ـ الحمام سنيوريتا.

فاستدارت أريكا ممتنة.. كان الحمام ساحراً.. ربما كان أصلاً غرفة ملابس.. يشمل حجرة دوش من بين تجهيزاته الفاخرة. إنها غرفة مخصصة للجمال ولفن التبرج لإرضاء الرجل.. وهذا ما جعل أريكا تشعر بالغثيان. إنه قفص صغير.. تستطيع فيه العصفورة الجلوس لتزيين نفسها طوال النهار.

لكن التفكير بالدوش كان لا يقاوم.. شعرها كان ملبّداً، وتحتاج أن تغير ملابسها.. وتأوهت في نفسها تتذكر أن الحقائب المتوفرة لها كانت لنيقبل، وأن الفتاة المكسيكية ملأت بسرعة الحقيبتين من خزانة ثياب متنوعة، بالرغم من احتجاجات أريكا.

كل الثياب الآن معلقة في الخزائن، تملأ الأدراج، وكلها أنيقة

وفاخرة.. لكن القليل القليل منها من الطراز، أو اللون، الذي قد تختاره لنفسها.. فكرة تقديم نفسها في ثياب فتاة أخرى إلى نظرات الدونا أنتيا المزدرية وابنتها لم تكن مستساغة.

الصدمة التالية كانت أن كريستينا اعتبرت أن من واجبها مساعدة أريكا على الاستحمام.. وأمضت أريكا عدة دقائق تحاول ثني الفتاة عن عزمها، وصرفتها واعدة أن تستدعيها إذا احتاجت لشيء.

التفت بمنشفة حمام ناعمة، وعادت إلى الغرفة.. لا شك هناك وسيلة لتجفيف الشعر، لكنها كانت مترددة في استدعاء كريستينا فهي بحاجة لأن تكون لوحدها لفترة قصيرة.

غداً أو بعد غد يجب أن تكون في «ميريدا» للتحضر لبدء إجازتها.. بدلاً من هذا ها هي في هذه الغرفة الجميلة سجينة. وفي مكان ما من هذا البيت، رجل جعلها سجينته.. الرجل الذي وعدته بالزواج. ابتلعت ريقها، تكبح ضحكة هستيرية تصاعدت إلى حلقها.. إنها مزحة متوحشة.. لا بد أنها كذلك.

إنه ليس الحب.. بل الإذعان، الاستسلام، الخضوع لسيد إرادتها، دون مطالب لنفسها.. ودون أي نقاش.

حسن جداً.. على الأقل ستنجو نيقيل من البؤس هذا.. لديها سكوت وهما يحبان بعضهما.. ومع أن ليس هناك شيء مؤكد في هذا العالم إلا أن لديهما فرصة للسعادة.

ارتجفت بشدة تضغط بكفها على فمها. هل هذا هو المصير الذي جنته على نفسها حين قبلت دون تفكير بهذه المهزلة؟

أخذت فرشاة الشعر ثم وقفت لتذهب إلى النافذة وفتحت المصراع الخشبي وخرجت إلى شرفة تحيط بالطبقة الأولى.. كانت الشمس لاسعة.. وأغمضت عينيها أمام قوتها، تحرك كتفيها بسعادة وهي تمرر الفرشاة في شعرها.. ترفع الخصلات الناعمة لتجففها حرارة الشمس.

سمعت صوتاً تحتها، فنظرت إلى الأسفل لترى مانويل واقفاً في الفناء، تعابير وجهه مزيج من الإعجاب والحرج.

قال:

ـ لم أكن أقصد إزعاجك. كنت في طريقي إلى الاسطبل.

ـ أنت لا تزعجني أبداً. كنت أجفف شعري.

ـ كما أرى.. إنه جميل جداً.

وابتسم لها.. فوجدت نفسها تميل إليه. كان لديه جاذبية خاصة به.. لكنه أقصر قليلاً من فيليب، وأملأ جسماً. قسمات وجهه أقل وسامة، لكنه يمتلك سحراً ودوداً مشرقاً. وعرفت أن الرحلة لو حصلت معه لكانت مستساغة دون مشاكل.

وكأنما قرأ أفكارها، فقال:

ـ لفيليب حظ الشيطان نفسه.

أحست بالحمرة تعلو وجنتيها:

ـ إذن.. تعرف.. كل شيء.

فتح يديه:

ـ لقد اتصل بي عند أول محطة توقف فيها.. وطلب مني التأكد من مكان وجود نيقيل، وهو لا يستطيع طلب هذا دون إعلامي بالسبب مع أنني..

وصمت فجأة.. فأكملت له:

ـ مع أنك لم تتوقع أن يأتي بي إلى هنا.

فاحمر وجهه بدوره:

ـ ربما لا.. لكنني مسرور، أؤكد لك.. لقد آن له أن يتزوج.. لقد كان وحيداً، كما أعتقد.

رفعت حاجبيها:

ـ ليست هذه هي الكلمة التي أختار أن أصفه بها.

ـ سنيوريتا ريردون! إنه مجرد رجل على أي حال.. وليس قديساً.. ثم..

قطعت كلامه مبتسمة:

ـ ثم لا يجب أن أعرف أشياء كهذه.. وأرجوك، نادني أريكا.

ابتسم باغتباط وارتياح واضحين:

ـ سأكون سعيداً بهذا، وأتمنى أن نكون صديقين.

كان في وسط الفناء بئر ماء، ومقعد حجري حوله. فوقه شجرة جافة المظهر توفر الظل.. وتساءلت أريكا ما إذا كان في البئر ماء.. لكن نظرة إلى السماء الملتهبة جعلتها توقن أنها مجرد زينة.

قال مانويل:

ـ المكان بارد هنا مساءً، مما يجعل الجلوس حوله لطيفاً.. حين تقام الحفلات هنا، يعلق الخدم المصابيح في الشجرة وحول الشرفة.

ـ وهل هناك الكثير من هذه الحفلات؟

ـ ليس منذ بعض الوقت.. لكن هذا سيتغير الآن.

إنه يعني طبعاً وجوب إقامة احتفال بمناسبة زواج دون فيليب..

راقبت مانويل يجتاز الفناء، ثم رجعت إلى غرفتها، تمرر أناملها في شعرها لتختبر مدى بلله.. التقت وجهاً لوجه مع فيليب الواقف بباب الشرفة، يداه على خصره، ينتظرها وإمارات التجهم بادية على وجهه، وقال ببرود:

ـ زوجة عمي بانتظار أن تطلب الفطور.. وجئت لأرى ماذا يؤخرك.

ـ أنا آسفة.. لقد غسلت شعري.. وخرجت لأجففه.

ـ ولتتحدثي إلى ابن عمي مانويل.. ربما في المستقبل، عليك الانتظار إلى أن تكوني مرتدية كل ملابسك قبل أن تتحدثي إليه.

نظرت أريكا إلى نفسها، ثم إليه بعجب.. كانت مغطاة تماماً من الصدر حتى القدم. وقالت بحرارة:

ـ لكنني محتشمة اللباس تماماً.. وأنا مرتدية ملابساً أكثر حشمة مما كنت عليه ليلة أمس!

قال ببرود أكثر:

ـ ما ترتدينه، أو لا ترتدينه، كرمي لعينيّ وحسب، أما هو فأمر مختلف وأرجو أن تتذكري هذا.. والآن تيّا أنتيا منتظرة.

استدار على عقبيه، وغادر الغرفة، لتبقى أريكا تحدق في الفراغ الذي

تركه متأرجحة بين الغضب وتبسيط الأمور.

وفاز الغضب: من يظن نفسه؟

لكن الرد كان قد أخذ يتشكل في رأسها.. إنه آسرها، سجّانها، الرجل الذي يحمل بيده مفتاح سجنها، الرجل الذي يعبرّ عن رغباته وقادر تماماً على تنفيذها بالقوة. بلعت بريقها، ويداها مضمومتان بقبضتين مشدودتين.. أظافرها تحفر بشدة راحتي يديها الرقيقتين.

فكرت: يا إلهي الرحيم.. يجب أن أهرب من هنا قبل أن يفوت الأوان.

* * *

٥ ـ دمعة متجمدة

كان وجه أريكا متجهماً متمرداً وهي تجلس في ظل الشرفة حيث كرسي ومسند أقدام وضعهما لها بيدرو، الذي يبدو أنه رئيس خدم المنزل.. وطاولة تحمل صينية عليها إبريق من عصير الفاكهة الطازجة المثلجة، وكوب. لكنها تجاهلت كل هذا.

كانت وجبة الفطور رهيبة من بدايتها إلى نهايتها عند دخولها غرفة الطعام، نظرت عينا فيليب إليها ببرود وسرعة، تستوعبان الفستان بصدره الضيق وتنورته المنفرجة، ورأت فمه يشتد سخطاً.

قال:

ـ تيا أنتيا.. أريكا تحتاج إلى ملابس جديدة.. ربما ترتبين أمر إحضار خياطتك إلى هنا.

قالت أريكا باحتجاج:

ـ لدي ملابس كثيرة، لكنها.. في مكان آخر.

هز كتفيه:

ـ وستبقى حيث هي.. على أي حال إنها ليست مناسبة لجهاز عروس جيد.

جلست في الكرسي الذي كان يهيئه لها، تسمع دونا أنتيا تسحب نفساً سريعاً يشبه هسيس الأفعى. وقالت:

ـ فيليب.. لا يمكنك أن تتوقع..

قاطعها بنعومة:

ـ لكنني أتوقع.. وأعتقد أنني أوضحت هذا تماماً.

ساد صمت كحد السيف.. ونظرت أريكا إلى سطح الطاولة اللماع.. ثم رفعت بصرها لتواجه نظرة عدوانية من آلانا، دفعت بالاحمرار إلى وجنتيها. إنها فتاة جميلة، لكن النظرة المتجهمة النكدة كانت تعكّر جمالها.. أخيراً كسرت دونا أنتيا الصمت، توجه الكلام لأريكا:

ـ قال لي ابن أخ زوجي إن الزواج سيتم ما إن تنتهي الترتيبات.. وإنه سيكون زفافاً هادئاً.

قال فيليب ببرود:

ـ على العكس.. سنرسل الدعوات إلى العائلة كلها، وللأصدقاء أيضاً.

شهقت دونا أنتيا.

ـ لكن نظراً للظروف.. الظروف المريبة..

وصمتت فجأة يغلبها شعور بالانصياع:

ـ كما تشاء فيليب طبعاً.

أحنى رأسه: شكراً لك، تيا أنتيا.

ثم نظر إلى أريكا:

ـ عائلتك كوبريدا، أيمكن إقناعهم بالمجيء.. أتظنين هذا؟

حركت كتفيها بعجز:

ـ والدي مزارع، وهذا الوقت مليء بالعمل بالنسبة له، ووالدتي لن تأتي بكل تأكيد دونه.. ولست أدري.

ـ لكن حين تكتبين لهما ستدعينهما.

لم يكن قوله طلباً، بل أمراً.. وطار صوابها وهي تحاول تصور الطريقة التي ستزف الخبر فيها إلى عائلتها.. ماذا ستقول؟

تكلمت آلانا لأول مرة بلهجة مهينة واضحة:

ـ إذن أنت ابنة فلاح؟ من المؤسف أن فيليب يمضي القليل من الوقت في الهاسيندرا.. لكنك ستشعرين وكأنك في وطنك بين المواشي والجياد.

ابتسمت أريكا:

ـ والخنازير.. أشعر بارتياح بينها كذلك!

www.elromancia.com

ساد صمت مذهول وآلانا تستوعب ما سمعت.. ثم تصاعد لون الغضب الأحمر إلى وجهها ونظرت إلى أريكا نظرة حقد.. وهبط على الجميع صمت مطبق.. وأيقنت أريكا أن وجه فيليب متجمد كالثلج كرهاً للحديث المتبادل.

دخل مانويل الغرفة تلحق به خادمة بلباس رسمي، لتضع القهوة على الطاولة مع خبز طازج ساخن، ثم طبقاً كبيراً من البيض المخفوق، مع البصل المفروم ناعماً، الطماطم، والحر الأحمر. كانت أريكا جائعة، لكنها اضطرت إلى حشر كل لقمة في حلقها.. وهي تأكل، سمحت لنفسها بالتدريج أن تنظر حولها تستوعب ما يحيط بها.. إنه جو مقبض قليلاً.. الأثاث الأسود الثقيل كان يمنح شعوراً بالقساوة والاستقرار، وكأنما يذكر الناظر إليه أن هذا المنزل، هذه الأرض، تنتمي إلى قرون التوحش والبدائية الماضية. هذا الانطباع ازداد رسوخاً مع رؤية اللوحات التي تصور أفراد العائلة، المعلقة باكتئاب على الجدران.

تلك النظرة المتعجرفة الباردة متأصلة فيهم جميعاً منذ البداية.. وجوه كالحة ارستقراطية تنظر بسلطوية، تطالب بالسيادة على هذا «العالم الجديد» الذي جعلوه ملكاً لهم.

كل اللوحات هكذا، عدا واحدة.. ووجدت أريكا نظرها يعود مرة أخرى إليها، مذهولة بالتعبير المتفائل في العينين السوداوين، والابتسامة الخفيفة التي تتلاعب على الشفتين الممتلئتين.. كانت دون شك أصغر بكثير من بقية النساء، وبينما لم يكن يبدو على واحدة منهن أنها تسببت لزوجها بلحظة قلق، بدت هذه الفتاة وكأنها كانت بحر متاعب.

بدلاً من منديل الرأس التقليدي، كانت تضع فراشة فضية تلمع على شعرها الأسود.. وفي يد كانت تحمل وردة حمراء قاتمة تخلق تنافراً مع قماش فستانها الفضي اللماع.

أحبت أريكا أن تستفسر عنها.. لكن من غير المحتمل أن ترغب دونا أنتيا أو آلانا أن تجيباها.. بينما كان فيليب يتفحص كومة بريد جاء بها بيدرو وهو مشغول الفكر.

حين انتهت وجبة الطعام، اعتذر فيليب فجأة وترك الغرفة، بعد لحظات وقفت دونا أنتيا تلحق بها آلانا وتركتا أريكا تجلس وحيدة إلى الطاولة الكبيرة.

أخيراً وجدها بيدرو تتسكع باضطراب في الردهة.. فأجلسها بأدب ظاهر في الشرفة التي تحيط بالفناء الخارجي.

نظرت إلى القنطرة.. الاسطبلات هي في مكان ما، وافترضت أن لا وجود لاعتراض لزيارتها..

وقفت تتحرك ببطء وتكاسل عبر الشرفة نحو المدخل.. كما توقعت شاهدت مبانٍ أخرى أقل فخامة من الهاسيندرا، وعلى مسافة، سمعت همهمة أصوات غامضة، وظنت أنها سمعت صوت غيتار، لكن ربما كان هذا من وحي خيالها.

فتحت الباب، واجتازت عتبة تتوقع أن يعترضها أحد ويعيدها إلى حيث كانت.. بدت المطابخ كجناح مفصول تماماً، وأزكمت أنفها الروائح اللذيذة المتصاعدة نحوها. الجميع الآن منهمك في تحضير وجبة الطعام الحافلة لمنتصف النهار، ولن يخفل أحد بها.

عبرت فناء آخر. واستدارت حول زاوية، لتتسع عيناها مع رؤيتها شارعاً في قرية صغيرة تحده على الجانبين أكواخ بطبقة واحدة.. الغسيل منشور ليجف في الشمس، ومجموعة من الأطفال يلعبون في التراب..

ابتسمت لهم قائلة «بوناس دياس» لكنهم حدقوا فيها فاغري الأفواه صامتين.. أكملت أريكا سيرها ببطء تفكر: مجتمعان منفصلان تماماً، يحتلان المساحة المحدودة عينها.. يبدو أن دون فيليب يهتم بعماله جيداً. الأكواخ مبنية بشكل جيد ومصانة بما هو مناسب، وهناك إحساس بالهدوء يسيطر على الشارع كله.

بوصولها إلى آخر الشارع، توقفت محتارة أي طريق تسلك.. توقفت تنظر حولها تظلل عينيها بيدها.. إلى اليمين منها، رأت أرضاً مزروعة تكثر فيها قنوات الري، ورجال يعملون فيها.. فاستدارت إلى اليسار.. لتجد نفسها في فناء آخر محاط بمباني الاسطبلات.. كان مانويل هناك يتحدث إلى

رجل هادىء صغير الجسم يرتدي قبعة واسعة.. لكنه صمت فور مشاهدته لها وتقدم إليها فوراً.

ـ سنيوريتا.. أريكا. ماذا تفعلين هنا؟ أليس فيليب معك؟

تجنبت السؤال:

ـ قررت أن أستطلع المكان.. أليس مسموحاً؟

ابتسم:

ـ بالطبع.. هذا بيتك.. وإذا استطعنا جعلك تألفينه، فسيقضي فيليب مزيداً من الوقت هنا.

ـ أرجوك.. لا تبالغ في تقدير مدى تأثيري على ابن عمك.

ضحك مانويل:

ـ وكيف يمكنني هذا؟ دعيني أشرح لك.. فيليب يحب «لاماريبوسا» ولطالما أحبها.. لكن في السنوات الأخيرة أخذ يقلّل من إقامته هنا.. وليس بسبب التزامات عمله فقط.. صعب عليّ أن أقول هذا، لكن أمي وفيليب.. لم يكونا متوافقين دائماً كما أتمنى.. إنه طيب معها طبعاً، ولسنوات كانت هي السيدة هنا.. لكن الآن وهو سيتزوج، كل هذا سيتغير.

صمت قليلاً ثم كشّر:

ـ لقد كانت لها وجهة نظرها..

أكملت له أريكا:

ـ أرادت أن يتزوج فيليب من آلانا.

وبدا عليه الإحراج:

ـ أجل.. وكان هذا غير معقول بالطبع.. فيليب لم يظهر يوماً أي دليل.. وآلانا نفسها ما كانت لتفكر.. ما عدا..

وصمت ثانية.. فسألت: ما عدا؟

تنهد مانويل:

ـ شقيقتي شابة صغيرة وسريعة التأثر.. منذ سنة أقامت.. علاقة مع رجل لكنه لم يكن مناسباً، وقيل لها أن لا تفكر به.. في ذات الوقت بدأت

أمي تقترح.. أنا واثق أنني لست بحاجة لقول المزيد.

ردت أريكا بخشونة: هكذا إذن.

مسكينة آلانا.. لا عجب أنها أحست منها بتلك الكراهية المشحونة!

سألته:

ـ أتظنها أحبت فيليب؟

ـ أشك في هذا.. فهو لم يعطها يوماً أقل تشجيع، أظنها كانت تحب أن تصبح سيدة.. وليس هذا كل شيء.. كما لا بد تعرفين.

ـ أعرف القليل.. ما قالته نيفيل فقط.

ـ آه.. صحيح.. مما قاله لي فيليب، فهمت أنك تشاركت في شقة معها.. طفلة حلوة.

ـ وهي معجبة بك كذلك.

بدا مسروراً:

ـ حقاً؟ مع ذلك لا سبب يدعوها إلى تذكر هذا المكان بسعادة كبيرة، كانت زيارتها كارثة.. كانت تخاف من الجياد، وفيليب لظنه أنه يرضيها وضعها على ظهر جواد! أولاً بكت وأخذت بالصراخ، ثم تقيأت.

ردت ببرود:

ـ هذا ذكاء منها.. أتمنى لو جربت هذا بنفسي.

نظر إليها مانويل بحدة:

ـ أنت أيضاً تخافين الجياد؟ هذا محزن.. فيليب فارس خبير.

ـ أنا أركبها منذ الطفولة.

ابتسم:

ـ إذن هذا سيسعده كثيراً.

عضت شفتها:

ـ إسعاد ابن عمك ليس همي الوحيد في الحياة.

تلاشت ابتسامته:

ـ لكن كزوجة له..

ـ نحن لم نتزوج بعد.

www.elromancia.com

ـ لكنكما ستتزوجان.. فيليب رجل يحترم كلمته.

ـ وهل هذا هو المهم؟ أليس لرغباتي حساب؟

ـ كنت أفترض أن رغباتك متوافقة مع رغباته. يجب أن تأخذي بعين الاعتبار ظروف لقائكما.. وكل ما حدث منذ ذلك الوقت.

بدا عليه الحرج، ثم:

ـ حين اتصل فيليب بي، ليقول إنك أخذت مكان نيقيل، كان واضحاً من حديثه أن لديه نيات محددة نحوك.

أحست بالاحتقان يدبّ في وجهها.. وقاومت ليبقى صوتها طبيعياً:

ـ لكن ليس الزواج؟

ـ لا.. ليس في ذلك الوقت.. لكن واضح أن شيئاً ما حدث ليغير رأيه.. و..

قاطعته:

ـ لا شيء حدث، لأجل السماء.. المسألة ليست مسألة شرف.. شرفه أو شرفي أو شرف أي أحد آخر. يجب أن تصدقني.

رد بصراحة:

ـ هذا ليس من شأني.. وما كان يجب أن أتكلم أبداً. سامحيني.. جئت لتشاهدي الجياد.. فهل تسمحين لي بأن أريك إياها؟ هناك، للأسف، جواد واحد مناسب لركوب السيدات، وهو ملك لأختي آلانا.. وأنا واثق أنها ستكون سعيدة بأن تعيرك فرسها، إذا أحببت.

أشفقت أريكا عليه:

ـ إذا كنت أريدالركوب، فسأسألها.. وما أحبه فعلاً هو أن أتفرج على الهاسيندرا.. إنني واثقة أن لها تاريخاً حافلاً دون أدنى شك.

ابتهج مانويل بشكل ظاهر:

ـ أوه.. هذا صحيح.. وسأكون سعيداً بمرافقتك.. ربما فيما بعد.. بعد الغداء؟

ابتسمت تهز رأسها موافقة، قبل أن تستدير مبتعدة للحظة بدا لها أن من الممكن الإفادة من دعم مانويل لها في مسألة خلاصها من هنا.. لكنها

عادت وفكرت بحكمة صارفةً النظر عن هذه الفكرة..

كانت كريستينا منتظرة على الشرفة حين عادت.

ـ طلب مني دون فيليب أن أعدّل ثيابك سنيوريتا.. هلا وافيتني إلى فوق وأريتني تلك التي ترغبين في تعديلها.

بدت الفتاة منزعجة قليلاً، وتساءلت أريكا مخلة ما إذا كان قد طلب منها أن تعتني بسيدتها الجديدة بشكل أفضل.. مستحيل أن تشرح لها أنها ليست معتادة على خادمة خاصة بها.. لكن الواقع أنها تحتاج حقاً إلى مساعدة منها، فهي ليست بارعة في الخياطة.. وليس من دواعي السعادة التحرك بملابس لا تناسبها أبداً.

بحثتا في ثياب نيقيل، اختارت تلك التي من الممكن أن تلائم حاجتها، وملأ هذا الوقت المتبقي لحين الغداء، وأشرق وجه كريستينا بإعجاب للون شعر أريكا، كما ألمحت إلى أن أريكا نحيلة جداً، وربما أن ذوق السنيور دون فيليب يميل إلى النساء الممتلئات.

بتصميم صرفت اهتمامها عن هذه الفكرة. كل ما تحتاج أن تذكره الآن أنه رجل يجبرها على زواج دون حب، ليرضي كرامته المجروحة.. وجف فمها فجأة لتذكرها تأثير لمسات يديه.

حين دخلت غرفة الطعام، ساد صمت فوري أجبرها على الاستنتاج أنها كانت موضوع الحديث الدائر. واكتشفت أن فيليب لم يكن هناك. وقال مانويل لها بصوت منخفض:

ـ ابن عمي يعتذر لتأخره.. إنه يقابل رجلاً يقود شاحنة.

كانت آلانا تُرهف السمع:

ـ سائق شاحنة؟ لماذا لا يكلم بنجو مورتينز أمثال هؤلاء؟

هز مانويل كتفيه متمنياً لو أنه بقي صامتاً:

ـ لأن هذه مسألة يفضل فيليب التعامل بها بنفسه.

أذعنت آلانا لكن كان في عينيها نظرة شك. نظرت أريكا حولها محرجة، ورأت اللوحة التي أثارت الغموض في نفسها. بالتأكيد لم يكن هناك خدعة ضوء تضع هذا التعبير اللعوب المتراقص في العينين السوداوين.

مال مانويل إليها:

ـ أنت معجبة بدونا تيريسا.. ابنة عمنا الصغيرة؟

صاحت أمه:

ـ مانويل! أرجوك تذكر أنه ليس هناك علاقة رسمية بيننا.. وبين سنيوريتا ريردون.

رفع مانويل كتفاً، دون تراجع:

ـ العلاقة ستكون وثيقة بعد وقت قصير.. لو كنت مكان فيليب لن أنتظر أكثر مما يلزم.

ردت دونا أنتيا بصوت أكثر حدة:

ـ حسناً.. أنت لست مكانه.. ولن تكون أبداً.. يجب أن أعتذر عن ابني سنيوريتا.. واضح أن أخلاقه الطيبة خَذَلتهُ.

قالت أريكا بحلاوة:

ـ أوه.. بل العكس.. دون مانويل لم يكن سوى اللطف بعينه منذ وصلت إلى هنا.

نظرة دونا أنتيا المواربة نحو ابنها دلت على أنها تود القول بأن دون مانويل أحمق، لكنها لم تقل شيئاً.

انفتح الباب ودخل فيليب:

ـ آسف لإبقائكم منتظرين.. كان يجب أن تطلبوا من بيدرو أن يبدأ بتقديم الطعام.

قالت دونا أنتيا بابتسامة صفراء:

ـ ليس الأمر مهماً.

سألت آلانا:

ـ لماذا كنت تكلم سائق شاحنة؟

رفع فيليب كتفاً ببرود:

ـ وجدت نفسي مديناً له، وفضلت أن أدفع الدين بنفسي.. أنا شاكر لك آلانا لهذا الاهتمام بشؤوني.. لكن ربما اعتبرنا المسألة الآن منتهية.

احمرت عينا آلانا حَرَداً لكنها لم تقل شيئاً، ودخل بيدرو يحمل قصعة

كبيرة فضية فيها الحساء.

كان الغداء لذيذاً، بدءاً من الحساء نفسه إلى كتل اللحم المفرومة المطيبة بالبهارات والأعشاب، انتهاء بالحلوى.

عدة وجبات على هذا المنوال، وستتحقق أمنية كريستينا وسيمتلىء جسم أريكا.

مالت آلانا إلى الأمام تبتسم بزيف:

ـ هل أعجبك الطعام المكسيكي سنيوريتا ريردون؟ اعتقدت أن طعامنا سيكون حرّيفاً عندك ومزعجاً جداً للذوق الإنكليزي.

هذا إذا كان الطعام هو كل ما تتكلم عنه!

ـ لكنك نسيت أنني في المكسيك منذ أكثر من سنة، وكان أمامي متسع من الوقت لأعتاد.

استدارت إلى مانويل مبتسمة:

ـ أرجوك.. لا تنسَ وعدك لي بأن تريني الهاسندرا.

وقف مانويل احتراماً: بالطبع!

نظر إلى فيليب المستند إلى الوراء على رأس المائدة: أتسمح فيليب؟

رد بلهجة سأم:

ـ أنت الخبير هنا أميغو.

لكن أريكا أحست أنه غير موافق، ووجدت هذا مثيراً.

وهما يقطعان الردهة قال مانويل بارتباك:

ـ قد تظنين من الغريب أن لا تعرض أمي عليك أن تكون مرشدتك.. لكن..

ردت بجفاء:

ـ لا أجد هذا غريباً أبداً.. فأنا واثقة أنها وشقيقتك تفضلان إيجاد كل السُبُل التي تجعلني قاصرة عن أن أكون عروساً مناسبة لابن عمك.

تنهد:

ـ وهل هذا واضح جداً؟ أريكا، أنا حقاً آسف. في الواقع، أمي اعتادت أن تكون السيدة هنا، حتى أنها ستجد صعوبة في أن تحتل المركز

الثاني بعد امرأة أخرى.. أية امرأة.. الأمر ليس شخصياً ضدك.. صدقيني.

لم تكن أريكا واثقة هكذا.. لكنها ابتسمت له.

ـ شكراً لطمأنتك لي.

نظرت حولها في الصالون الذي دخلاه، تريد تغيير الموضوع لأجل مانويل.. لا يمكن لومه لتصرفات أمه وأخته.

ـ يا لها من غرفة جميلة.. الأثاث قديم جداً كما أعتقد.

ـ معظمه جاء من إسبانيا على مراكب شراعية، ثم نقل إلى هنا على عربات تجرها البغال.. ويا لها من رحلة! ويا له من حمل!.. لا بد أن دونا تيريسا كان لديها طريقة إقناع فريدة من نوعها.

تذكرت أريكا أنه أشار إلى اللوحة التي أعجبت بها على أنها للدونا تيريسا، وأشارت حولها:

ـ إذن هذا كله من صنعها؟

ـ إلى مدى كبير. إنها قصة رومانسية.. كانت ذات جمال أخّاذ ووريثة ثروة ضخمة، لكنها وقعت في حب جندي لا يملك سوى شجاعته، هكذا حرّمت عليها عائلتها مجرد التفكير به.. كان بالإمكان أن تتزوج أياً كان، وكانت معتادة حياة الثراء، وحفلات الرقص والأعياد. كانت راقصة رائعة خفيفة القدمين حتى سميت بالفراشة «لاماريبوسا».

ـ إذن، الهاسيندرا تحمل اسمها؟

ـ سي.. وأصبح حبيبها أحد الرواد الأوائل هنا.. وأسس لنفسه ثروة، هذه المرة حين سعى لطلب يدها لم ترفض عائلتها مع أنهم توسلوا إليها أن لا تأتي إلى هذه الأرض البدائية المتوحشة.. أن لا تغادر إسبانيا.. لكنها سخرت من مخاوفهم وقالت إنها ستأخذ القليل من إسبانيا معها.

تحركت أصابع أريكا بإعجاب فوق الخشب العتيق المحفور، وتمتمت:

ـ ولقد فعلت بكل تأكيد.

لو أن دونا تيريسا معهما الآن تسير إلى جانبهما، لظل كل شيء مألوفاً لديها رغم تطور الهاسيندرا من أيامها حتى الآن.

سألت:

ـ هل كانت سعيدة هنا؟

هز مانويل كتفيه:

ـ لم تعش كثيراً لتتمتع بسعادتها.. ماتت وهي تلد بعد سنة من إتمام رسم لوحتها.. وكاد زوجها يفقد عقله حزناً عليها.. لكن الصبي الذي ولدته له أبقاه على جادة الصواب.

ارتجفت أريكا..

ـ قلت إنها قصة رومانسية.. لكنني أظنها حزينة.

بدت عليه الدهشة:

ـ ألا يمكن أن تكون الأمرين معاً؟ أن تحب وتُحب في المقابل.. أليس هذا ما تتمناه كل امرأة في سرها؟ مهما كانت سعادتها قصيرة؟

ـ لست أدري.. أيمكن أن نتابع جولتنا؟

كان هناك العديد من الغرف في الطابق الأرضي كلها بحجم كبير، وتكفي تماماً، لإعطاء أي من سكان الهاسيندرا، الخلوة التي قد يرغب فيها..

الغرفة التي لم تعجبها كثيراً، كانت مكتبة فيليب.. لا علاقة للفخامة بها.. إنها غرفة رجل متقشف، مجهزة بمنضدة من صنع يدوي، ومليئة بالرفوف المكدسة بالكتب.

ـ هذه ملاذ فيليب حين يكون هنا.. من المفروض، أن لا يقاطعه أحد حين يكون الباب مقفلاً. لكن بالطبع هذا لن ينطبق عليك، ابنة عمنا الصغيرة.

ـ ألا تشاركه فيها؟

ـ لدي مكتبي الخاص.. ولا أتطفل على خلوته.. أنا لست شجاعاً إلى هذا الحد. لكنني أعتقد أن عزلته لن تكون غالية عنده كثيراً بعد الآن.

سألت أريكا نفسها: عزلته؟ فيليب أنديكو دو ميندرا آخر شخص في الدنيا يحتاج لأن يكون وحده.

استدارت لتترك الغرفة، وأجفلت بعنف وهي تراه مستنداً إلى حافة

الباب يراقبهما.. وبدا مانويل مغفلاً كذلك.. وفتح بدبه بسرعة:

ـ أنا آسف فيليب.. ظننت أنك ترغب في أن ترى أريكا كل شيء.. حتى هنا.

لم يتحرك من مكانه:

ـ طبعاً. لكن من الملائم أكثر أن تريها فيونكا جناح المطبخ، وغرف النوم.. بنجو مورتينز يبحث عنك.

ـ سأوافيه حالاً.

واختفى مانويل قبل أن تتمكن أريكا من أن تشكره.

تقدم فيليب من أمامها إلى طاولته وأخذ سيكاراً أسود رفيعاً من علبة هناك.. أشعله دون عجلة واستمر في تأملها.

ـ هل أعجبك منزلي كويريدا؟

لاحظت أنه لم يستخدم كلمة «بيتي».. وقالت:

ـ لا أحد يتمالك نفسه عن الإعجاب به. لقد أخبرني مانويل قصة دونا تيريسا.. لا ماريبوسا.. لقد عجبت لأمرها حين رأيت الفراشة على شعرها.

ـ يقال إنه طلب صنعها لها من منجم للفضة قرب سانتو توماس.

ـ ألا زالت موجودة؟

هز رأسه:

ـ أعتقد أنها دفنت معها.

امتدت يده إلى أحد أجهزة الهاتف على الطاولة، الهاتف الداخلي كما خمنت.

ـ هل أطلب لك فيونيكا لتريك ما تبقى من المنزل؟

ابتلعت ريقها:

ـ ليس.. الآن.. يجب أن أتحدث إليك.

نفث سحابة دخان أبيض.

ـ أنا في خدمتك أميغا.

أخذت نفساً عميقاً:

ـ الأمر ميؤوس منه.. ولا بد أنك رأيت هذا. إبقائي هنا والزواج مني.. لن ينجح.. عائلتك لن تتقبلني أبداً زوجة لك.. ومن الأفضل للجميع.. لو.. تتركني أذهب.

ـ ربما أفضل لك. لكنني لا أنوي تركك.. على أي حال، لا يجب أن تخافي.. ستذعن تيا أنتيا لك مع الوقت.. فستخسر كثيراً إذا لم تفعل.

نظرت إليه بدهشة: لست أفهم.

ـ الأمر بسيط جداً.. كان لزوجها مال كثير، لكنه كان مقامراً، مضارباً في المعادن. ولقد استثمر كل ماله في مناجم لم تنتج شيئاً.. وخسر كل ثروته، ولحسن حظه قتلته الصدمة قبل أن تقتله تيا أنتيا. وبما أن هوى مانويل الدائم كان المزارع، فقد عرضت عليه إدارة مزرعتي لاماريبوسا لتكون منزلاً له، لكن تيا أنتيا هنا ضيفة عليّ.. وهذا ما أضطر دائماً أن أذكرها به.

بللت شفتيها:

ـ لقد قلت لمانويل الحقيقة، كيف التقينا، وأمور أخرى.. لكن ماذا قلت لزوجة عمك وابنتها؟

التوى فمه:

ـ لم أقل لهما الحقيقة نشيكا.. لكن قصة تتناسب مع الظروف.. وهل هذا مهم؟

ردت مهزومة: لا أعتقد.

أمسك ذقنها بيده يجبرها على النظر إليه:

ـ كلمة تحذير.. لا تدعي ابن عمي مانويل يقع في حبك.. لن أجد هذا مرحاً.

ردت بحدة تجذب نفسها منه:

ـ لا عليك.. مع عريس غير مرغوب به في حياتي، من المستحيل أن أبدأ بتشجيع شخص آخر!

استدارت لتخرج لكنه أمسك ذراعها:

ـ إذن أنت لا تريدينني.. يا لك من منافقة كبيرة.

أحنى رأسه يعانقها. هذه المرة لم يكن عنيفاً متوحشاً.. بل كان عناقه ناعماً جعل دمها يضج في عروقها.. كل قراراتها حول البقاء متحفظة لا تلين، ماتت ميتة سريعة وهو يقربها منه مطلقاً في نفسها تجاوباً، كانت عاجزة عن السيطرة عليه.

وفكرت: لم أكن أعرف أبداً أن الحال سيكون هكذا.. يا إلهي ساعدني! لم أكن أعرف.. ثم توقفت كل عملية التفكير بينما إدراكها كله يلين تماماً إلى تلك الأحاسيس الجديدة التي كانت تجتاحها..

قالت آلانا عند الباب:

ـ فيليب.. هناك مكالمة لك.. أوه..؟

دون استعجال، رفع رأسه ونظر إليها:

ـ غرانسيا آلانا.. ربما تتفضلين بطيبة خاطر أن تجدي فيونيكا وتقولي لها إن «نوفيا» تتلهف لرؤية بقية المنزل.

شخرت آلانا من أنفها بصوت منخفض، واستدارت على عقبيها، وهي تنقل نظرة إلى أريكا كانت مزيجاً من العداء العادي والفضول المشدوه.

احترق وجه أريكا خجلاً وهي تتراجع، يداها ترتعشان.. حين تأكدت أن آلانا لم تعد على مرمى السمع قالت مرتجفة: أكرهك.

ابتسم:

ـ ربما كويريدا.. لكنك على الأقل لست غير مكترثة بي.

همست:

ـ سأعمل على تغيير هذا!

هز كتفيه:

ـ سيكون هذا مضيعة للطاقة كويريدا.. والآن لو عذرتني..

ومد يده إلى الهاتف.

وهي تخرج، وقبل أن تصفق الباب الثقيل، سمعته يقول:

ـ سي، لوتشيا.. كيف حالك؟

إذن المتكلم المجهول لا بد أن يكون لوتشيا كويزس التي ذكرتها نيفيل.. كانت قد افترضت أن تلك العلاقة كانت من الماضي، لكن يبدو

أنها مخطئة.. فليس لدى فيليب أدنى نية للسماح بشيء تافه كالزواج أن يتدخل في ملذاته.. جعلها الألم المفاجيء في حنجرتها، تشعر وكأنها ابتلعت سكيناً ذا حدين.. مع ذلك.. ماذا كانت تتوقع؟

بدأت تحث الخطى في الممر. في الردهة التقت فيونيكا.. امرأة ممتلئة بشعر أبيض، تلاشت ابتسامتها الجاهزة حين قالت لها أريكا إن صداعاً أصابها ولن تتمكن من رؤية المزيد من الهاسيندرا اليوم.. رفضت كل العروض لأي شراب بارد أو دواء ثم صعدت إلى غرفتها.

لكن، حتى وهي في غرفتها، لم تجد راحتها. فاستلقت على السرير العريض تنظر إلى الفراشة، جناحاها الرقيقان المطرزان يلمعان تحت أشعة الشمس. كان شعارها في كل مكان.. تلك الفتاة التي سافرت حول العالم لتجد حبها.

وفكرت أريكا: وأنا كذلك سافرت بعيداً مثلها.. لكن، ماذا يوجد هنا لي؟ ليس الحب، بالتأكيد!

إلى أن وصلت كريستينا لتساعدها على تغيير ملابسها استعداداً للعشاء كانت قد استعادت شيئاً من شتات نفسها وسيطرتها.

جلبت كريستينا معها الفستان الذي كانت تعدله لها.. قماش أسود بسيط، بياقة مربعة واسعة، وكمين بطول المرفق.. وهي ترتديه أحست أريكا أنها على استعداد لمواجهة العالم.. أنهت تبرّجها تحت إشراف كريستينا وكانت تضع أحمر الشفاه حين قرع الباب.

تقدمت كريستينا لترد.. ثم وقفت جانباً تضحك في سرها مع دخول فيليب.. وقبل أن تستطيع أريكا منعها، اختفت تتركهما لوحدهما.

قال:

ـ أنا آسف كويريدا لأنني لن أكون هنا للعشاء. يجب أن أذهب إلى سانتوتوماس لعمل غير متوقع.

أعادت غطاء أصبع الحمرة، ووضعته من يدها. وسرها رؤية مدى ثبات يديها.. راقبت عيناه عينيها عبر المرآة:

ـ أليس لديك شيء تقولينه؟

ـ ماذا تريدني أن أقول؟

هز كتفيه:

ـ كلمة تدل على أسفك.. وأنك قد تشتاقين إليّ.

قالت دون أثر للتأثر:

ـ أنا آسفة.. سأشتاق إليك.

رأت فمه يتصلب.. وقال بسخرية:

ـ كنت أنوي أن أعطيك هذه فيما بعد، لكنني فكرت أنك قد ترغبين في ارتدائها وقت العشاء.. لتذكرك بي.

وضع علبة مخملية مسطحة على طاولة التبرج أمامها.. للحظات لم تتحرك.. فقال بشيء من نفاد الصبر:

ـ افتحيها أميغا.

كانت قلادة.. لؤلؤة فريدة لماعة معلقة في سلسلة ذهبية.. لم ترَ أريكا مثلها من قبل.. وهي تنظر إليها أحست أنها لا تكاد تقوى على التنفس.. انحنى فيليب ليضع السلسلة حول عنقها، فتسللت اللؤلؤة ببرود فوق صدرها، ثم انحنى ليقبل كتفها.

لو أنها كانت هادئة.. فقد أخذت الآن ترتجف. نبضات قلبها تصخب لمجرد ملامسته لها.

وقالت بخشونة: لا!

وارتفعت يداها لتبعده عنها..

عبس قليلاً:

ـ لا تخافي كوبريدا.. سأحافظ على وعدي. لكن حين تصبحين زوجتي، لن يكون هناك ما يخفيك عني.

ببطء، وبطريقة ساخرة، سأل:

ـ ألن تشكريني؟

قالت ببرود:

ـ غراتسيا سنيور.. إنها قلادة جميلة، وأنا واثقة أن نيقيل كانت ستبتهج كثيراً بها.

تصلب الوجه الأسمر القاتم واستقام فجأة.. وتوقعت رداً لاذعاً، فأغمضت عينيها وكأنما تحمي نفسها من غضبه.. حين فتحت عينيها لترى ماذا يحدث، كانت لوحدها.

في الصالون، كان الجميع بانتظارها، وقالت:

ـ آسفة لتأخري.

تقدم مانويل يأخذ نفساً عميقاً:

ـ إذا كنت قد تأخرت يا ابنة العم الصغيرة.. فأنت تستحقين الانتظار. صدقيني.. هل أحضر لك شراباً؟

قالت بحزن مصطنع:

ـ هل تظنني فظة دون مانويل لو قلت لك إنني أرغب في تناول العشاء؟.. أنا جائعة جداً.

وقفت دونا أنينا:

ـ إذن بكل سرور. دعينا نذهب إلى العشاء. لقد أخرناه بما يكفي.. تعالي آلانا.

مرت بأريكا، دون نظرة إليها، تلحقها ابنتها.. وقال مانويل بسرعة:

ـ أريكا.. أنا آسف حقاً لأن فيليب ليس هنا الليلة.

رفعت حاجبيها بهدوء: لماذا؟

فتح يديه دفاعاً:

ـ حسناً.. إنه أول عشاء لك.. أول عشاء في بيتك.. وهي مناسبة هامة.. ولك كل الحق أن تتذمري لغيابه.

قالت ببرود:

ـ غياب دون فيليب شيء يجب أن أعتاد عليه، ومن الأفضل أن أبدأ في الحال.

تمكنت من قول هذا دون أثر للألم.. لكنها لم تستطع إخفاء المرارة تماماً:

ـ ثم.. أعتقد أن هناك شيئاً مثيراً للإعجاب في مثل هذا الولاء لصديق قديم.

توقعت أن يغمى على مانويل حرجاً وصدمة.. لكنه لم يسجل سوى الدهشة والاستحسان.

ـ إذن.. تعرفين.. وتتفهمين الوضع؟

قالت بصوت متوتر:

ـ يبدو أن لا خيار عندي.. الآن هل نذهب إلى العشاء؟

خلال تلك الوجبة التي لامست حدود السأم جلست مع لؤلؤة فيليب وكأنها الدمعة المتجمدة على صدرها.

* * *

٦ ـ خسرت الرهان

مع اقتراب يوم الزفاف، وجدت أريكا الأيام تأخذ شكل الحلم.. وكانت تعي تماماً أنها لم تعد تتحكم بمصيرها.

أمضت وقتاً لا بأس به تكتب الرسائل.. إلى أبويها، إلى شارلوت ونيقيل.. رسالة أبويها كانت صعبة جداً، لأنها مضطرة أن تخفي أشياء كثيرة لا يباح بها.. مثلاً: لا يمكنها أن تكتب إلى شخصين تحبهما «يجعلني أشتعل شوقاً لو أمسك بيدي.. لكن لديه عشيقة في سانتو توماس، يزورها عدة مرات في الأسبوع، وربما سيستمر في هذا بعد الزواج هكذا وبدلاً من هذا، قالت لهما إنها سعيدة جداً، وأنهما إذا كانا قادرين على المجيء لحضور الزفاف فلسوف يرسل لهما فيليب التذاكر على الفور.

الرسالتان إلى شارلوت ونيقيل كانتا أكثر سهولة، لأنها تستطيع قول ما تشاء من الوقائع الجريئة دون تفسير أو توسع.. رجاؤها الوحيد كان «أرجوكما لا تقلقا عليّ».

لم تلن الدونا أنتيا كما توقع فيليب.. بل أصبح تصرفها بالتدريج مسلماً بالواقع مع اقتراب موعد الزفاف. وشكت أريكا من أن تكون سعيدة في سرها لإتمام الترتيبات بالرغم من تذمرها الدائم.. كانت تلعب دور المضيفة الرشيقة حين بدأ الزوار يصلون ليتعرفوا إلى عروس دون فيليب الجديدة. وأقيمت حفلات غداء وعشاء للضيوف من كل أنحاء الولاية، وما جاورها.. بعضهم كان يصل بطائرة خاصة.. واكتشفت أريكا أن فيليب لديه رخصة طيران ويطير بطائرته الخاصة التي يستبقيها في مطار مونتراي.

لكنها كانت تحس بالاضطراب كلما كان بعيداً.. ليس لأنها تشتاق إليه كما أكدت لنفسها، بل لأنها دون وجوده وحمايته كانت تحس أكثر بعداء عائلته وعدم ترحيبهم بها.

لكن، ليس مانويل بالطبع.. كان دائماً صديقاً مراعياً لمشاعرها.. لكنه لم يكن دائماً هناك كذلك.. وفي تلك الأوقات كانت أمه وأخته تباشران برمي سهامهما.. تتناقشان في حديث مطول تبعدان عنه أريكا عن قصد.. كانت تعلم أنهما تتعمدان أن تظهرا لها بعدها عن عالمهما الثري.. وأرادت أن تقول لهما: لا تقلقا.. فهذه ليست فكرتي..

لكن حياتها كلها لم تكن حافلة دائماً بالزوار والمناسبات الاجتماعية، فالسنيورا شوليو الخياطة كانت الآن مقيمة في الهاسيندرا، وهي امرأة صغيرة الجسم ممتلئة، بعينين لماعتين، كانت أريكا تعرف أن السنيورا هناك لتخيط ثوب عرسها.. لكنها، أجفلت لحجم الجهاز المقدم لها.. خاصة مع واقع عدم وجود رحلة شهر عسل.. فقد أخبرها فيليب فجأة أن ارتباطات عمله ضاغطة جداً، لكنه سيرتب رحلة ما في وقت آخر من السنة.

وبالرغم من أنها في قرارة نفسها كانت ترفض فكرة شهر العسل التقليدية.. إلا أنها أحست أن مثل تلك الرحلة كانت ستسهل الأمور كثيراً لها، ولو لبضعة أيام.. إنها تجد من الإحراج حتى أقصى الحدود أن تضطر لمواجهة العالم الصغير في الهاسيندرا كل يوم كعروس لفيليب. لكن وفي ذات الوقت، من المستحيل الإقرار بوساوسها إليه.

كما أن مجرد فكرة أن تكون لوحدها معه تخيفها، أو فكرة اضطرارها إلى الإذعان لمتطلبات كانت لا تزال غامضة لديها.. إنه يريدها.. والأسوأ من هذا أنها تعرف بأنه قادر على جعلها تريده.

في كل مرة كان يعود فيها إلى الهاسيندرا من إحدى رحلاته، كانت تحس وكأن هوائياً غير مرئي يحذرها، وقبل أن تسمع صوته بوقت طويل أو تسمع وقع خطاه العريضة الرشيقة كانت تحس أنه قريب منها.

هذا ما أخافها.. تصورها للعبودية الكاملة له.. خضوع شخصيتها لشخصيته..

لم تضع قلادة اللؤلؤ منذ أهداها إياها. مع أنها تبرجت بمجوهرات أخرى أعطاها إياها، وكلها إرث عائلي، معظمها رائع، ولو بتصميم قديم الطراز.

أفضل هدية قدمها لها على الإطلاق لم تكن إرثاً. أعطاها لها بطريقة عفوية في إحدى الأمسيات، وقت اجتماع الجميع في «الصالون» قبل العشاء.. داخل اللفافة وجدت أريكا فراشة، جسمها فضي وأجنحتها رقاقات لؤلؤ.. أثبتتها في شعرها واستدارت إليه بابتهاج بعينين مشرقتين، تحاول شكره.. لكنها لم تجرؤ، ولا بقبلة سريعة على الخد.. وهز كتفيه:

- دي نارا.. أريكا.. يبدو أنك مفتونة بلاماريبوسا، وأعتقد أنها تناسبك.

حتى تمتمة آلانا بعبارة «نافهة رخيصة» لم تؤثر على سعادتها بها.

مع مرور الأيام، أخذت باستيعاب الواقع.. كان هناك تفاصيل قانونية تسوّى، أوراق توقع، ووجدت نفسها طائعة كإنسان آلي، تعرف وهي تفعل أن لا تراجع.

لكن هل تريد حقاً أن تتراجع؟

لو أن معجزة ما حدثت ومحت الأسابيع التي مرت، وأعادتها إلى تلك الفتاة التي كانت في مكسيكو سيتي، لا شيء ينتظرها سوى رحلة الاستكشاف، هل تفعل كل هذا؟

لست أدري.. فقط.. لست أدري.

وهذا ما كان يثير اضطرابها.

لم تكن مراسم الزواج تختلف كثيراً عما كان سيجري في كنيسة قرية صغيرة في انكلترا، كما شرح لها الأب غونزاليس خلال إحدى زياراته في الأسبوع المنصرم لإعطائها التعليمات، لكن الكنيسة ذاتها كانت مختلفة، بمنحوتاتها وذهبها، ورائحة البخور العابقة في جوها.. وتمثال مريم العذراء بأثوابه الموشّاة بالذهب المطعّمة بأحجار كريمة، والهالة الذهبية المرتفعة فوق رأسها.

كم من عرائس ميندرا راقبتهن هاتان العينان وكرر صوتهن بإذعان قسم

الزواج المقدس، بعد الأب غونزاليس؟.. لم يبدُ لها أي شيء من حولها حقيقياً ولا حتى نفسها في هذا الثوب، طبقات متراكمة من الدانتيلا الحريرية العاجية اللون، والطرحة الطويلة التي طلب منها فيليب أن ترتديها.. لم يشرح لها شيئاً، ولم تسأل، لكن كان هناك شيء بالطريقة التي كان يلمس بها الطرحة وهو يقدمها إليها أخبرها أنها كانت لأمه.

تساءلت ماذا كانت ستقول أمها لو رأتها هكذا. لقد رغب والداها بالمجيء لكن كان هناك الكثير من العمل في المزرعة، وهكذا وعدا بزيارتها لاحقاً.

لكنها دهشت لمعرفتها أن فيليب كتب لهما كذلك. لم يذكر لها هذا أبداً وسرها هذا وتأثرت به.

في غياب والدها، تساءلت من سيرافقها إلى المذبح ليقدمها إلى عريسها، إلى أن أبلغها عرّاب فيليب خلال إحدى زياراته أن له الشرف أن يفعل هذا.. كان رجلاً يميل إلى السمنة، له لحية بيضاء مرتبة، يشابه تماماً الصورة الخيالية التي رسمتها أريكا لفيليب نفسه، بحيث أنها جهدت لإخفاء ابتسامة حين قدمت إليه أول مرة.

لكنه كان لطيفاً معها وهو يتأبط ذراعها إلى المذبح، يربت على يدها مطمئناً، يقول لها إنها جميلة كملاك.

سنيورا شوليو كانت نابغة، والفستان الذي صنعته لها رائع، أسطوري، كالحلم، وأكدت لها السنيورا أنه سيأتيها بالحظ الجيد.. وبنظرة ماكرة وضعت لفافة بين يدي أريكا:

ـ وهناك هذه.. أصنعها دائماً للعروس.. ثوب للنهار، وآخر لليل.

وتنهدت بعاطفة، ثم انسحبت.

حلّت أريكا الشريط الأبيض، وباعدت الورق الرقيق الملفوف، تعلم ماذا ستجد.. كان غلالة نوم بيضاء كغمامة من الشوفين الشفاف.. ونظرت إليه أريكا تحس بالذعر يتصاعد إلى رأسها.

قالت كريستينا الواقفة قريباً:

ـ آه.. كم هو جميل! دعيني أحمله سنيوريتا.. أترين؟

تركت القماش يتدلى فوق يدها وذراعها كي ترى أريكا كم هو شفاف..

أعادت أريكا أفكارها إلى الحاضر، تحس جموداً في حلقها، بينما خاتم فيليب ينزلق في خنصرها.. إنها الآن متزوجة..

في الأمسية السابقة، اختارت لحظة عرفت فيها أن فيليب في مكتبه لوحده، وذهبت إليه هناك. وقف ما إن ظهرت مترددة بالباب، حاجباه مرفوعان عجباً.

ـ لقد شرّفتني كويربدا.. ظننت أنك مشغولة.

ـ لا.. لا شيء يشغلني.. عمتك كفؤة جداً.. كل شيء جاهز.. ما عدا..

وترددت.. فسأل: ما عدا؟

ـ ما عدا أنا.. فيليب.. الوقت لم يفت بعد.. يمكنك تركي أذهب.

استدار حول الطاولة إلى جانبها، عيناه ضيقتان، وحاجباه الأسودان معقودان على عبوس:

ـ أي هراء هذا؟

ـ ليس هراءاً.. لا يمكنك الزواج مني.. وتعرف هذا. لماذا لا.. تسمح لي بالذهاب؟ قد يكون هناك كلام في البداية، لكن دونا أنتيا سرعان ما تقنع الجميع أنك محظوظ.

هز رأسه:

ـ لن يكون هناك كلام، لأنك لن تذهبي إلى أي مكان. كيف يمكنك على أي حال أن تذهبي دون هذا؟

مد يده ليلتقط جواز سفرها المتواجد على الطاولة، ويتصفّحه:

ـ أرى أن المطلوب مني السماح لحاملته بحق المرور بحرية، دون تأخير أو إعاقة.. وبقدر ما أحترم ملكتكم، لا أنوي أن ألبي طلبها..

دس الجواز في جيبه:

ـ سيبقى هذا معي أميغا.. وكذلك أنت.

ـ أوه.. يا إلهي.. لماذا تفعل هذا؟ ماذا تريد مني؟

رد بصوت ناعم:

ـ أريدك زوجة أريكا.. وأريد ولداً.. وستوفرين لي الاثنين معاً.. لقد اقتحمت حياتي.. وستبقين فيها على الدوام.

ـ لآخر مرة فيليب.. أرجوك.. دعني أذهب.

هز رأسه ساخراً: أبداً.

تركته دون كلمة أخرى، توجهت مباشرة إلى غرفتها. ذلك النهار، في السيارة، وهما ذاهبان إلى سانتو توماس، جلسا كغريبين دون كلمة.. وهي تدخل الكنيسة في ذراع عرّابه طوال الطريق إلى المذبح، لاحظت أنه يراقبها بعينين تلمعان عجرفة وحب تملك في عينيه..

الآن كان فيليب يساعدها لتقف من جثوها على ركبتيها.. وكانت عيناه مثيرتين للحيرة وهو ينظر إليها، فأشاحت بنظرها بعيداً متوترة.

كان الناس يبتسمون وينحنون لها وهي تندفع مع عريسها نحو الأبواب المفتوحة، وأجبرت نفسها على ردّ تحياتهم، والتظاهر بأنها عروس سعيدة كما يتوقع منها.

لكن كان هناك وجه غير مألوف أبداً.. لاحظته أريكا على الفور، وجه امرأة خارقة الجمال.. شعرها الأسود الفاحم مضفور إلى الوراء، ترتدي ثياباً أنيقة وتضع زينة رائعة، عيناها الكثيفتا الرموش، فمها المكتنز.. أشياء بارزة لا تنسى.

ثم أصبحا في الخارج، وكان هناك جمع آخر.. العاملون في الحقول، رعاة البقر، الخدم، والكل يقدم التهاني.

المراسم الدينية للزواج تمت بعد ساعة «السياستا» أي القيلولة.. وسيليها احتفال.. وسرعان ما سيكون هناك موسيقى في الفناء، ورقص، وألعاب نارية.. كل أنواع الاحتفال.. وهي محور تلك الاحتفالات.

من المتوقع منها أن ترقص، وترقص مع فيليب. الجميع سيرغب في الرقص مع العروس.. لكنه زوجها. وهذا من حقه.. لم ترغب أن تفكر بالحقوق الأخرى التي سيطلبها منها لاحقاً..

داخل المنزل، كان بيدرو كله ابتسامات، يقدم الضيافة للجميع.

تقدمت دونا أنتيا وآلانا لتعانقاها، ومر خداهما بسرعة على خدها وبطريقة رسمية، قبل أن تتراجعا. وقبل مانويل يدها قائلاً بهمس:

ـ فيليب أكثر الرجال حظاً.

استمرت بالابتسام إلى أن ظنت وجهها سينشطر إلى ألف قطعة صغيرة، بينما يمر بها المدعوون للتهنئة.. كثير من التمنيات الطيبة، والنيات الحسنة، مع ذلك لم تصدق شيئاً منها.. إنها كالدمية ترتدي ثياباً ليست لها، يحركها الغرباء، لكن وبسرعة البرق سيأتي وقت تنقلب الدمية فيه إلى امرأة.

فجأة أحست أنها يجب أن تهرب من كل الابتسام حولها، من الكلمات المتملقة، والنظرات المتحذلقة.

استدارت إلى فيليب:

ـ الطرحة تؤلم رأسي.. هل لي أن أزيلها قبل الرقص؟

تفرس في وجهها الشاحب مقطباً:

ـ طبعاً.. هل أرسل لك كريستينا؟

قالت على عجل:

ـ أوه.. لا.. أستطيع تدبّر أمري.

الغرفة الهادئة في الطبقة العُليا لم تعد لها وحدها.. لقد أعيد ترتيب السرير كما لاحظت فوراً، بشراشف أطرافها مطرزة بالدانتيل، وأضيف إليه المزيد من الوسائد..

أزالت أريكا الدبابيس الممسكة بالطرحة، تعمل بحذر لتجنب تمزيق الدانتيل الهش.. ثم أجفلت بعنف لطرقة على بابها.

كانت فيونكا تبتسم:

ـ هذه رسالة وصلت لك سنيورا.. طلب مني سنيور دون فيليب أن أعطيها لك على الفور.

أخذتها أريكا، ووجهها يشع نوراً لتعرّفها إلى خط أمها. كانت مجرد رسالة صغيرة، لكن مفعمة بالحب. تقول فيها إنهم جميعاً يفكرون بها، ويبثون معها رسائل محبة إلى فيليب، لن تجرؤ على نقلها إليه.

وكان في الرسالة مغلف آخر قالت الأم عنه: «أضمّن رسالتي رسالة وصلتك من سويسرا.. أظنها على الأرجح من جويل.. هل أنت على اتصال بها؟» والرد المختصر على هذا كان «لا» لقد تجنبت أية كتابة لأي من أصدقائها في سويسرا، كي لا يتضمن الرد أخباراً عن هيوغو لا تريد سماعها.

نظرت إلى المغلف الآخر، ثم دسته في الدرج.. ستقرأه لاحقاً.

في الخارج، كانت العتمة تشتد، وفي الفناء كانت تسمع أصوات الموسيقى.. لا يمكن أن يبدأ الرقص دونها، إذن حان وقت النزول.

تقدم فيليب يستقبلها، غريب أنيق ببذلة سوداء، سترتها البسيطة مطرزة بالفضة. تركته أريكا يمسك يدها الباردة ويطوق خصرها بذراعه.. كانت خائفة من أن تتحطم حين يلامسها.. لكن قبضته كانت رقيقة جداً ومنضبطة. في وقت آخر، كانت ستتمتع بالتحرك معه على أنغام القالس السريع ضمن دائرة وجوه بشوشة، تحييهما وتمطرهما بالزهور.. انتفخ فستانها وهو يديرها، وانتهت الرقصة ليتقدم غيره بلهفة لبراقصها.. ولمحته من فوق كتف شريكها الجديد، ورأت أنه يبتسم ابتسامة شاحبة. إذن بإمكانه أن يبتسم! إنه يعرف أنها مهما راقصت من رجال، ستكون في النهاية معه لوحدهما.. إنه الصقر في كابوسها، يحوم فوقها، يعرف أن فريسته موجودة ليأخذها متى شاء.

أكلت طعاماً لم تكن تريده.. ردت على أسئلة بالكاد سمعتها.. أخيراً استدارت على لمسة لذراعها لتجد آلانا تواجهها.. وكانت ابتسامتها مزيفة:

ـ أريكا.. هناك شخص هنا يرغب جداً في مقابلتك فهل لي أن أقدم لك السنيورا دونا لوتشيا كويزس؟

إنها المرأة التي لاحظتها في الكنيسة.. عن قرب كانت أكثر جمالاً.. فستانها الأحمر القاتم مفصل بعناية ليجذب الاهتمام إلى خصرها النحيل وصدرها العامر.. وكان صوتها منخفضاً آسراً.

ـ من دواعي سعادتي مقابلتك دونا أريكا.. كان يمكن أن أزورك قبل الآن.. لكن منذ وفاة زوجي، وجدت نفسي متورطة في السياسة.. وأسافر

كثيراً. لكنني لا يمكن أن أفوّت على نفسي فرصة حضور عرس صديق قديم مثل فيليب، لأي سبب في الدنيا.

خطرت ببال أريكا عدة إجابات.. لكن نظرة إلى الانتصار الحاقد في عيني آلانا جعلتها تصمت، ثم قالت ببطء:

ـ إنها.. سعادة لي كذلك، سنيورا. لقد سمعت كثيراً عنك.

ضحكت سنيورا كويزس، كاشفة عن أسنان كاللؤلؤ المنظوم:

ـ ليس من فيليب كما أرجو! نحن نعرف بعضنا جيداً حتى أنه ليس مخبراً يُعتمد على صدقه.. إنه يطريني كثيراً.

رفعت أريكا حاجبيها ببرود:

ـ لا أظنه أتى يوماً على ذكرك أمامي.. لا.. إنه شخص آخر.

بدت سنيورا كويزس مرتبكة قليلاً:

ـ هكذا إذن.. حسناً.. أرجو أن نصبح صديقتين.

ابتسمت لأريكا مجدداً وانصرفت تلحق بها آلانا.

خاطبت أريكا ضيفتها المنسحبة: وأنا أرجو أن لا أراك مرة أخرى.. وأدهشها كم جعلها اللقاء غاضبة. قالت لنفسها، إن غضبها لم يكن سببه واقع أن لفيليب عشيقة، فقد يكون لديه نصف دزينة وهي لا تعلم، لكن كونه تجرأ على دعوتها إلى حفل زفافه.. لكن ليس لديه سبب يحمله على الاعتقاد بأن عروسه تعلم بوجودها.

حضر مانويل فجأة:

ـ تبدين غاضبة، ابنة عمنا الصغيرة.. هل داس أحمق أخرق على قدمك؟

من خلفه رأت فيليب يتقدم عبر الجميع، فابتسمت بسرعة:

ـ لا شيء.. ارقص معي مانويل.

بدا مجفلاً: لكن فيليب..

ـ أوه.. لن تنقصه شريكة رقص.

مدت يدها تتلمّس التطريز على كم قميصه:

ـ سأبدأ بالظن أنك تكرهني مثل أمك وأختك.

تمتم مانويل وقد بدا عليه الألم:

ـ ديوس! إنهما لا تكرهانك.. وأنا لا.. أنا.. أوه حسن جداً.. فلنرقص.

توقف فيليب يراقبهما، سمحت ليدها أن تنزلق من كتف مانويل إلى ياقته، تبتسم له.. وبدا كأنه سيصاب بنوبة قلبية.

ـ أريكا.. أتوسل إليك.. هل هذه لعبة ما؟ أحذرك أنها خطيرة.. فيليب ابن عمي وصديقي.. لكن غضبه مخيف.

نظرت إليه عبر رموشها:

ـ لكنك راقص ماهر مانويل.. وأنا واثقة أن.. زوجي لن يضنّ عليّ ببضع دقائق من السعادة في حفلتي.

قال بجرأة:

ـ إذا كنت تعتقدين ذلك فأنت لا تعرفينه أبداً. دعيني آخذك إليه أريكا.. أرجوك لا تستفزّيه أكثر!

كشرت في وجهه:

ـ هادم اللذّات! حسن جداً.. إذا كنت خائفاً إلى هذا الحد منه.

ـ أنا خائف عليك أكثر من خوفي على نفسي.. أترغبين في بدء حياتك الزوجية بتلقي الضرب من يده؟

قالت متحدية: لن يجرؤ.

نظر إليها بيأس:

ـ إذا كنت تصدقين هذا، فأنت إذن حمقاء. على أي حال، الرقص سينتهي عما قريب.. لقد آن وقت الألعاب النارية، حين تبدأ هذه، من عادة عائلتنا أن تنسحب العروس.. لترتاح.

ـ أنا لا أنوي هذا.. أريد رؤية الألعاب النارية.. من المفترض أن تكون هذه الحفلة على شرفي، وسأتمتع بها حتى آخر لحظاتها.. عادات كهذه هي من الماضي، وليست لأيامنا الحاضرة.

أطبق فم مانويل بشدّة تنم عن أنه لن يتردد في وصف أنواع التقريع الذي ستسمعه بسببها. وبلهجة حذرة، قال:

ـ هذا جدال من الأفضل أن توجهيه إلى زوجك. ابن عمي سنيورا.. سآخذك إليه.

كان فيليب يستند إلى أحد أعمدة التراس.. فاستقام مبتسماً، لكن الابتسامة لم تصل إلى عينيه.

قال مانويل:

ـ لقد جننتك بعروسك أميغو.. يبدو أنها لا توافق على بعض عاداتنا.

ـ أياً من عاداتنا ترغبين في تحديه الآن تشيكا؟

بقلب يخفق ألماً، قالت:

ـ مانويل قال لي إنه حريّ بي أن أنسحب قبل عرض الألعاب النارية.. قال إن هذا تقليد عائلي، لكنني لا أرى في الأمر ما يوجب ذلك.

هز كتفيه:

ـ ابقي إذن.. أعتقد أن الألعاب النارية صممت أصلاً كي تخفي احمرار وجه العروس.. لكن ما من أحد شاهد تصرفاتك الليلة تتعلقين بعنق ابن عمي، قد يصدّق أن لديك شيئاً من حمرة الخجل.

أرخى يدها وابتعد، يتركها واقفة واللون يتلاشى عن خديها.. من طرف عينها رأت نظرات الفضول تمطرها، والأدهى منها كلها كانت نظرة الدونا أنتيا لها المتعالية.

أخذت نفساً عميقاً، ورفعت تنورتها، تخترق الجموع الضاحكة المثرثرة، إلى داخل المنزل.

كانت كريستينا تنتظرها في غرفتها، وسمحت لها أريكا أن تخلع عنها ثوب العرس وتضعه جانباً. ثم قالت لها إن بإمكانها الانصراف بالرغم من تكدر الفتاة الظاهر.

من أصوات المفرقعات، وتوهج الأضواء والألوان، عرفت أن الألعاب النارية بدأت.. وسمعت أصوات الضحك والتهليل وهي تجلس تنظر إلى نفسها منكسرة. لم يحتج فيليب أن يضربها.. بإمكانه سلخ جلدها بنبرة صوته فقط.. ولقد وقفت هناك كالبلهاء.. لماذا لم ترد له اتهامه؟

حبست دموعها التي كانت لسبب مجهول تحتقن في مآقيها.. بعد وقت

قصير، ومع انتهاء الألعاب النارية، سيغادر المدعوون.. وسيودعهم فيليب ثم أكان غاضباً أم لا، سيأتي إلى غرفتها.. وهي لا تريد أن يراها حزينة.

بسرعة أكملت خلع ملابسها واستحمت، ثم ارتدت على مضض غلالة النوم الرقيقة التي تنتظرها. مشطت شعرها، ثم نظرت إلى صندوق مجوهراتها، وثبتت الفراشة الفضية بدبّوس على صدرها.

كانت على وشك إقفال الدرج حين رأت الرسالة التي أرسلتها أمها. لم تكن في مزاج لتحمل ثرثرة جويل المرحة.. لكنها، في المقابل، لا تريد الجلوس هناك تنتظر وصول فيليب.. هكذا فتحت المغلف وأخرجت الورقة الرقيقة من داخله. كان العنوان على المغلف مطبوعاً بواسطة الآلة الكاتبة، لكنها تعرفت على الخط في الرسالة حال أن رأته.. إنه خط هيوغو.

أحست بالغثيان فجأة.. هيوغو يكتب لها؟ هذا مستحيل! فتحت الرسالة وبدأت تقرأها: «عزيزتي أريكا.. أتوقع أن أكون آخر شخص في العالم تفكرين بالسماع عنه مجدداً. فبعد الذي قلناه قبل أن نفترق، يدهشني أن يكون لدي الجرأة لأكتب لك. لكنني لا أستطيع الكفّ عن التفكير بك، وبكل ما كنا نعنيه لبعضنا».

«على الأرجح لم تعرفي أنني أرمل منذ ستة أشهر، لقد قُتلت زوجتي في حادث سيارة.. انزلقت سيارتها فوق الجليد، وخرجت عن سيطرتها. كان هذا صدمة لي بالطبع.. لكن، بصراحة، لم يكن زواجنا ناجحاً.. لذا لن أدعي أن هذه نهاية العالم بالنسبة لي. كنا قد ناقشنا أمر الفراق قبل الحادثة مباشرة، وأنت تعرفين كم هي معتادة القيادة السريعة».

«كنت مغفلاً حين تركتك ترحلين.. وأدركت هذا منذ أمد طويل.. ولقد بدأت أجمع شتات حياتي مجدداً الآن، وأريدك أن تعودي إليها.. أعرف أنني عاملتك بسوء.. حبيبتي.. سامحيني، وقولي لي إنك قادرة على البدء معي مجدداً.. لا تدعي غلطة واحدة تدمر حياتنا مرة أخرى.. أكتبي لي أريكا.. قولي لي إنك ما زلت تحبينني. أحتاج إليك.. ولك كل حبي.. حبيبتي.. هيوغو».

جلست أريكا مصدومة.. الكلمات تتراقص بجنون أمام عينيها..

أيمكن أن يكون هذا صحيحاً؟ قرأت الرسالة مجدداً، ثم جعدتها إلى كرة ورمتها في الدرج، ثم أقفلته بحدة.

نظرت في المرآة إلى وجهها. وفكرت دون أن تصدق: هيوغو.. هيوغو حر ويريدها. لقد سخرت منها ظروف الدهر بأن عرفت بذلك الليلة تحديداً دون أي وقت آخر؟ ضحكتها المتصلبة بدت كالنحيب، ورفعت يديها إلى رأسها جاهدة حتى تستجمع أفكارها.

لكن.. هيوغو.. زوريخ.. كل ما كان بينهما هناك بدا لها وكأنه حلم تتذكر بالكاد نصفه.

هيوغو.. هيوغو الذي أحبته، والذي جرحها بعمق لن تحب بعده أبداً.

بيأس حاولت أن تستحضر وجهه في فكرها. شعر بني، متجعد قليلاً، عينان زرقاوان، مبتسمتان دائماً، في ذقنه نونة.. لكنها لم تقع على هذه الصورة. الرجل الذي في مخيلتها كان أسود كالليل بعينه.. قسمات وجهه منحوتة بجفاء.. في كلٍ منها الكبرياء والقوة.. عيناه لا تبتسمان أبداً، بل تنظران إليها بسخرية مريرة.

أوه.. يا الله! نهضت عن كرسي طاولة الزينة وبدأت تجوب الغرفة، يداها على وجهها. ماذا يعني كل هذا؟ هيوغو كان حبها، وحبها الوحيد. ولقد حطم قلبها.. فكيف يمكن أن تنسى بمثل هذه السرعة؟

كان الرد كئيباً: لأن فيليب جعلها تنسى.. منذ التقت به، سلب لبّها إلى درجة صرفها عن التفكير بأي شيء آخر. كل لمسة منه حفرت في ذاكرتها تجعلها تتألم شوقاً.. وهيوغو لم يتمكن من إيقاظ نصف العواطف الهاجعة التي أثارها فيليب.

تصرفها الشنيع تحت، إدارة ظهرها له ورقصها مع ابن عمه، لم يكن لأنها استهوت مانويل، أو لأنها أرادت أن تفرض نفسها كشخصية مستقلة غير مقيدة بتقاليد بالية.. بل السبب أنها كانت تحس بغيرة حارقة من لوتشيا كويزس.

طوال الوقت الذي كانت تراقص فيه مانويل؛ كانت ترى فيليب مع

لوتشيا، تتصورهما في مشهد غرامي، وكان الألم فوق طاقتها.

أرادت أن تجرح فيليب، لكنها لم تنجح بسوى جرح نفسها.. فهو لم يهتم.. إنه يريدها ولم يحاول إخفاء هذا الواقع، يريدها أن تنجب له أطفالاً، ويتوقع منها أن تتصرف كزوجة مخلصة له.. ولا شيء غير هذا.

الليلة، حين يضمها إليه أخيراً.. سيعرف دونما أدنى شك ما عرفته لتوها.. أنها تحبه.

ارتجفت، تلف ذراعيها حولها.. كان هذا في بالها منذ زمن بعيد، دون أن تقرّ به.. وأحست بالارتياح أخيراً في الاعتراف.. لقد قاومته منذ البداية، لكنها خسرت الرهان.

الآن، يمكنها الاعتراف لنفسها كم كانت تبدو حياتها فارغة كلما غاب عنها فيليب، وكم كانت تنتظر بلهفة عودته.. لم يظهر عليها هذا أبداً بالطبع، وما زالت لا تستطيع إظهاره، لأن شيئاً لم يتغير بعد.

إنه يتزوجها لأنه يرغب فيها وهذا كل شيء. لو لم ترق له جسدياً، لكانت الآن، على الأرجح، في السجن.. لكنه قرر، وبناء على نزوة، أن يبني لها سجنه الخاص الحميم.

هذه الغرفة ستكون زنزانتها.. ورفعت رأسها تحدق فيما حولها.. إنها الآن هادئة، أصوات الاحتفال تتلاشى من الفناء في الأسفل. ولن تكون لوحدها لفترة طويلة.. فهل لديها القوة للادعاء بعدم الاكتراث الذي هددت به؟ هل يمكنها تحمل أن يكون فيليب مجرد زوج بالمعنى الجسدي في الوقت الذي تريد في الواقع حبه؟

وقفت تضغط قبضتها على فمها كطفلة حائرة، تتساءل ماذا ستفعل.. ليس هناك مكان للهرب ولا للاختباء حتى من نفسها. لكن بالرغم من عذابها الداخلي، كانت تحس ببطء بشيء آخر.. في مكان ليس ببعيد، هناك صوت موسيقى، عزف رقيق على الغيتار، شخص ما يغني بصوت دافىء، تقدمت من النافذة لتنظر من وراء المصراع الخشبي.. كان هناك مجموعة من الماريناشي تقف في دائرة، والأنظار شاخصة إلى النافذة.. ربما هي فرقة من سانتو توماس.. وقفت تصغي من خلف الساتر الخشبي، وابتسامة حزينة

تعلو شفتيها.. ذات مرة، أبعد الماريناشي عنهما، لكن الفرقة هي الآن هنا، ربما لمجرد مصادفة تكررت.

لم تع متى أحست أنها لم تعد لوحدها في الغرفة، لكنها لم تستدر على الفور فهي قادرة على استغلال الأغنية كعُذْر لانشغالها.

أخيراً انتهت الأغنية، وتحول الغيتار إلى نغم آخر، وببطء استدارت ونظرت إليه. كان يقف على بعد أقدام قليلة منها، يرتدي روباً من الحرير الأسود.

كان ينظر إليها وكأن منظرها أحاله إلى تمثال حجري.. وأرادت أن تتكلم.. لكن الكلمات لم تفلت من عقالها.

قال بصوت أجش:

ـ بشرة كالعاج.. شعر كالذهب.. هل تعرفين كم أنت جميلة؟

الشوق الشديد في عينيه كان مدمراً.. كل ذرة من كيانها استجابت له، كانت تريده أن يضمها إليه أكثر مما تريد الحياة نفسها.. لكن لو خطت هي الخطوة الأولى ستفضح نفسها تماماً.. وذعرت فتراجعت إلى الخلف، ترفع يديها وكأنما لتصده عنها.

لم يتحرك.. ولا هي تحركت.. للحظات طويلة طويلة. ورأت تلك المشاعر تخمد في وجهه، ليحل مكانها ارتياب زال سريعاً.. ثم قلق شديد وهو يتحول عنها ليسير نحو السرير، يفك رباط الروب وهو يتقدم. فأدارت وجهها بسرعة.. حين تجرأت أن تنظر إليه كان قد دخل السرير، ينظر إلى السقف وذراعاه مطويان خلف رأسه.

أخيراً قال بلهجة اهتمام مؤدب:

ـ هل تنوين الوقوف هناك طوال الليل؟

ردت متلعثمة، تحس أنها أكثر من بلهاء وأسوأ من غبية مع كل لحظة تمر:

ـ لا.. بلى.. لست أدري.

ـ إذن أنصحك أن تقرري.. إلا إذا أردت أن أتخذ القرار عنك وأغتصبك؟

شهقت بارتياع: لا!

أدار رأسه فوق الوسادة ونظر إليها ببرود:

ـ يبدو أن هذا ما تتوقعينه.. منذ لحظات نظرت إليّ والرعب في عينيك.. ولم أقتنع بما أرى فالأمر جديد علي.

ـ أنا.. آسفة.. لكن.. لكنك لا تسهل الأمر عليّ.

ـ ربما لأنني لا أفهم مدى الصعوبة.. لقد شاركتني الفراش من قبل.. أم أنك نسيت؟

هزت رأسها:

ـ لا.. كان ذلك مختلفاً.

ـ كيف؟

ـ لم.. أكن زوجتك يومها.

قال بصوت بارد:

ـ ولست الآن زوجتي جسدياً، أو في دماغك العنيد. بضع كلمات قيلت لنا لا تصنع الزواج.. أم ظننت أنني سأكتفي بإبداء الإعجاب بك من بعيد؟

هزت رأسها تحس بسخفها:

ـ لا.. لقد أوضحت لي أنك تريد.. أطفالاً.

استدار إلى جانبه، يسند جسمه على مرفقه، وابتسامة مختصرة تلوي شفتيه:

ـ في النهاية أجل.. لكنك تخدعين نفسك إذا ظننت أنني أريدك هنا بين ذراعي لمجرد أن تحملي. أتصدقين هذا حقاً؟

قالت بصوت أجش: لا.

مد يده يرفع الغطاء عن الجانب الآخر من السرير.

ـ انضمي إليّ إذن..

تقدمت أريكا ببطء ضد إرادتها، واندست تحت الغطاء المرفوع.. تستلقي متصلبة على حافة الفراش.. سمعت تكتكة وانطفاء المصباح على جانب السرير، لتسبح الغرفة في الظلام.

كانت تنتظر متوترة.. تنتظر ماذا؟

قال بنعومة:

ـ أترين؟ لم يكن الأمر مستحيلاً كما تصورت. نامي جيداً كويريدا.. أنا مسرور لأجلك لأن السرير متسع. بإمكانك التكور بجبن في زاويتك مع مخاوفك العذرية بأمان تام..

امتدت لحظات طويلة إلى أبدية لا تنتهي وأريكا مستلقية بخوف في الظلام وقلبها يخفق بشدة، أخيراً قالت بصوت منخفض مرتجف: فيليب..

ـ سي؟

لجمت شجاعتها كي لا تخونها مجدداً:

ـ إذا كنت تريدني...

ـ أنت تشرفينني كثيراً أميغا.. لكن لا، فأنا أكره الاغتصاب أكثر منك.. ولا تنسي أنك أغضبتني كثيراً الليلة.. فكوني ممتنة لحسن حظك ونامي.

إذلالها جعلها تنكمش، بينما المسافة بينهما تفتح شرخاً عريضاً لا قرار له، كالمحيط.

لكن كيف لها أن تفسر له أنها لا تخاف من الحب، بل من مشاعر غير مرغوب فيها قد تفضح وجودها وهي بين ذراعيه؟

إنه يريدها وهي تعرف هذا.. ربما ينتظر أن تقوم بالخطوة التالية.. ماذا لو استدارت إليه؟...

وماذا لو قال لها أن تنام مرة أخرى؟ سألت نفسها بمرارة.. أيمكنها أن تواجه صداً صارماً آخر؟

كانت لا تزال متأرجحة التفكير في هذه المسألة حين غلبها الإعياء أخيراً وجرها إلى نوم مضطرب متقطع.

***

٧ ـ زائر الحلم

كان الوقت متأخراً في الصباح حين استيقظت. وكانت كريستينا تقف قرب السرير تحمل صينية فطور وتبتسم ارتباكاً.

ـ بوناس دياس سنيورا.

جلست أريكا بتكاسل.. وأكملت كريستينا: إنه صباح جميل سنيورا.

نظرت أريكا بقلق إلى أشعة الشمس المشرقة، وقالت:

ـ أظن الوقت يميل إلى بعد الظهر، كريستينا.

ـ ربما.. ماذا يهم؟ لقد أعطى سنيور دون فيليب أوامره أن لا نزعجك في وقت مبكر.

وضحكت بصوت منخفض:

ـ وأرسل لك هذه أيضاً.

وأشارت بزهو إلى وردة حمراء في إناء كريستال وسط الصينية.

نظرت أريكا إليها تأخذها الحيرة تماماً:

ـ هذا لطف عظيم منه.

شهقت كريستينا:

ـ لطف..؟ أوه لا سنيورا. أنت لا تفهمين، إنها عادة محلية.

تمتمت: عادة أخرى!

لكن كريستينا تابعت الثرثرة:

ـ هنا، بعد انتهاء ليلة العرس، يرسل الزوج إلى عروسه وردة ليعبّر عن مدى إسعادها له. ولقد أرسل دون فيليب لك وردة حمراء، سنيورا، زهرة الحب ذاتها.

وضحكت مرة أخرى:

ـ لا شك أنه رجل سعيد هذا الصباح؟

فكرت أريكا بوحشية: سنيور دون فيليب، نذل متهكم ساخر.. ودفعت الصينية بعيداً.

ـ لست جائعة كريستينا.. أريد أن أرتدي ثيابي.

كادت عينا كريستينا تقفزان من محجريهما:

ـ لكن سنيورا.. ألا يجب أن.. تبقي في مكانك؟

أحست أريكا باحمرار خفيف يتصاعد إلى خديها، وقالت:

ـ لا كريستينا.. حضري لي الحمام أرجوك.. وسأرتدي الفستان الأخضر.

كانت في طريقها إلى الباب حين أوقفها صوت كريستينا: سنيورا.. وردتك!

وتقدمت منها تحمل الوردة. نظرت إليها أريكا وسألت:

ـ وماذا يفترض أن أفعل بها؟

أشارت كريستينا بيديها يائسة:

ـ ضعيها في شعرك سنيورا، أو احمليها، أو ثبتيها في الفستان تجاه قلبك.

قررت على مضض: سأحملها.

أدركت الآن أن الوردة، بطريقتها الخاصة، دلالة نبيلة من فيليب.. فبعدما حصل ليلة أمس، كان بإمكانه أن لا يرسل إليها شيئاً، أو أن يرسل لها زهرة لبلاب مكسيكية ليعطي أهل المنزل كلهم شيئاً يتحدثون عنه همساً في الزوايا، بينما الآن سيظن الجميع أن «الدونيو» سعيد بعروسه.

نظرت إلى الوردة بدموع مفاجئة في عينيها. كان يمكن أن يكون الرمز حقيقياً.. لولا غباؤها.

وهي تتقدم ببطء نحو السلم، تشجع نفسها، تساءلت بأسى كم كان يومُها سيبدأ بشكل مختلف لو أنها وفيليب أحبّة.. كان يمكن أن تستيقظ وهي بين ذراعيه بدلاً من أن تجد نفسها لوحدها.. وتنهدت.

وهي تصل أسفل السلم، خرجت آلانا إلى الردهة من «الصالون» ووقفت تنظر إليها.

انقلبت شفتاها بشكل بغيض:

- بوناس داياس پوبريستا.. أعتقد أنك تفتشين عن عريسك.. كم من المؤسف أن هذا الغرام خمد بسرعة، وكم من المؤسف أنه لم يعد إلى صوابه قبل الآن.

ردت أريكا ببرود:

- لا أستطيع التفكير بما تعنين.

- لا؟ بينما يعلم الجميع أنه غادر غرفتك باكراً هذا الصباح، أبعده عنك برودك الإنكليزي دون شك.

كتمت أريكا إجفالة ألم، ثم تعمدت رفع الوردة التي كانت محتجبة في ثنايا تنورتها ومررتها بشفتيها.

اتسعت عينا آلانا عجباً.. ثم بصوت يشبه صوت القطيطة الصغيرة التي تلقت رفسة في وسطها، سارعت إلى الابتعاد.

كانت أريكا ما تزال واقفة مترددة في أسفل السلم حين ظهر بيدرو يحمل صينية مليئة بالكؤوس.. أحنى لها رأسه احتراماً وابتسم، ثم اختفى باتجاه غرفة الطعام لكنها نادته ليعود:

- بيدرو.. أتعرف أين هو.. زوجي؟

- أظن دون فيليب في الاسطبل سنيورا.. هل هناك رسالة أحملها إليه؟

- لا.. سأوافيه بنفسي.

- كما تشاءين دونا أريكا.

كان فيليب يقف متحدثاً إلى بنجو مورتينز وهي تقترب، فاستدارا معاً لينظرا إليها. ابتسم فيليب، لكن عينيه كانتا جامدتين تضمران أمراً ما، وأحست بنفسها تحمرّ قليلاً.. قال:

- كنت على وشك الإرسال في طلبك لتنضمي إلي، لدي شيء أريد أن أريك إياه.

بشيء من الحيرة، لحقت به إلى أحد مرابط الاسطبل، ودخل بنجو

مورتينز إلى الداخل، وسمعته أريكا يتمتم مداعباً بلغته، ثم ظهر يقود إحدى أجمل المهرات التي رأتها أريكا في حياتها.. كستنائية اللون صبحاء.. وشهقت ابتهاجاً: أوه! يا لجمالها!

قال بصوت ساخر:

- أنا مسرور لأنها أعجبتك كويريدا.. لقد وصلت باكراً هذا الصباح، لذا يلزمها يوم أو يومان لتعتاد منزلها الجديد.. ولكي يتأكد بنجو أنها لا تضمر طباعاً شرسة.

ومرر يده على عنق المهرة اللماع.

دفعت أريكا نفسها لتلتقي بعينيه:

- أتعني.. أنها.. لي؟

- لا لأحد غيرك.. اسمها «بيلا».

واختفى بنجو بلباقة.. قالت أريكا:

- لست أدري كيف أشكرك.

ابتسامته لذعتها بسخرية:

- ألا تدرين؟ ربما من الأفضل أن نرجىء أي نقاش في هذا الأمر إلى مناسبة أخرى.

ازدادت احمراراً، لكن قبل أن تفكر بالرد استدار ليعيد بيلا إلى حجرتها.

مع عودته إليها، قالت بسرعة:

- عليّ أيضاً أن أشكرك على هذه.

وأبرزت الوردة.

نظر إليها دون اكتراث:

- أعتقد أن كريستينا أعلمتك إلامَ ترمز.

عضت شفتها:

- أجل.. فعلت.. كان هذا.. لطفاً منك.

ضحكت بارتباك ثم:

- لقد أنقذتني فعلاً من انتقادات ساخرة أطلقتها ابنة عمك آلانا.

اشتد إطباق فمه:

ـ تلك الفتاة تحتاج إلى تأديب.. أو إلى شيء تفعله في وقت تكاسلها.. ألوم نفسي على هذا. منذ زمن كانت مصممة على الذهاب إلى الجامعة.. لكن أمها افتعلت بعض المتاعب مثل البكاء والإغماء عند سماعها بالفكرة.. حتى أنني سمحت لنفسي بأن أقتنع بوجهة نظرها.

ـ لكن لماذا؟

نظر إليها بجفاء:

ـ تيا أنتيا تنتمي إلى مدرسة تؤمن أن النساء يجب أن لا يتعلمن سوى الفضائل المنزلية. تنظر إلى التعليم كسبب لكل الآفات في العالم. وكانت تؤمن كذلك أنها لو أبقت آلانا في لاماريبوسا ووضعتها نصب عيني باستمرار، سأطلب منها في النهاية أن تكون زوجتي..

ـ كان بإمكانك التغلب على آراء عمتك.

ـ أجل.. لكن كانت لي شكوكي حول مصداقية آلانا في الذهاب إلى الجامعة.. في ذلك الوقت كانت تحت تأثيرات وجدتها غير مرغوبة.

نظرت أريكا إلى الأرض.

ـ كنت ستحل مشاكل كبيرة وكثيرة لو تزوجتها، فلماذا لم تفعل؟

ـ لديك ذاكرة ضعيفة كويريدا.. بالأمس فقط تزوجتك!

ـ صحيح. لكن يوم قررت الزواج بي، كان ذلك بسبب أنك تحتاج إلى زوجة، وليس أنا بالتحديد. أعني، كنت مستعداً للزواج من نيقيل التي بالكاد كنت تعرفها، لمجرد أن عائلتيكما أرادتا هذا.. فلماذا إذن لم تقترن بآلانا؟

ـ المرة الأولى التي أردت فيها أن أضع يداً على ابنة عمي آلانا، كنت أحمل فيها السوط. نيقيل على الأقل أخلاقها حميدة ومطيعة.. بعد الزواج، كانت على الأرجح ستزعجني بإخلاصها.. لكن دون أن تسبب أية مشاكل.

ستزعجني بإخلاصها.. الكلمات كانت كنصل السكين يجزّ في قلبها.. وقالت ببطء:

ـ كنت ستتزوجها بالعقل.. مع ذلك خسارتك لها لم تسبب لك ليلة أرق واحدة.

ـ ولماذا أضيع ليلة أرق على امرأة غائبة؟ ويجب أن أصحح معلوماتك، تشيكا.. لو كنت أريد زوجة كيفما اتفق، لكنت تزوجت عشر مرات.. لقد تزوجتك لأنني أريدك، أريكا.. كنت غاضباً للخدعة التي حاولت لعبها على عائلتي، لكن في ذات الوقت لم أستطع منع نفسي من الإعجاب بك وبجرأتك المتهورة، فوجدت فيها ما يسلي.. ومع تقدم رحلتنا معاً، بدأت أدرك أن بعض الأفكار التي راودتني عنك كانت خاطئة.. استجابتك لي أظهرت بوضوح أنك ما زلت عذراء، وهذا ما لم أكن أتوقعه.. ساعتها فقط قررت أن أجعلك زوجة لا عشيقة!

ـ إذن الخيار الذي عرضته عليّ لم يكن خياراً؟ ماذا لو أنني تصلّبت ورفضت الزواج منك؟

ضحك:

ـ إذن لأمضيت ليلة ممتعة وطويلة، وأنا أحاول ثنيك عن عزمك.

قالت هامسة:

ـ إذن.. ما الذي جعل تلك الليلة مختلفة عن.. ليلة أمس؟

انكفأ المرح بسرعة عن وجهه، وقال:

ـ لأنك هناك، بالرغم من ارتباكك لم تنظري إليّ وكأنني جلادك.

احمرت بألم وقالت بلهجة مختنقة: أنا آسفة.

رد بخشونة:

ـ وأنا كذلك.. فأنا لست معتاداً أن تنظر إليّ امرأة وكأنني وحش مفترس.. ولا أن تجفل مني مرتعبة.. لأجل المظاهر فقط يجب أن نتشارك الغرفة معاً لبضعة أسابيع.. وهذا شيء يجب أن أحاول التأقلم معه.

بدأ قلبها يخفق ببطء، ودونما ارتياح، ولم تنظر إليه.

ـ تعني.. أنك لن...

ـ هذا ما أعنيه بالضبط.. أنا لم أفرض نفسي يوماً على امرأة لا ترغب فيّ.. ولا أنوي أن أبدأ بك.. لا تُبدي مثل هذا الاضطراب كويريدا..

سأدخل غرفتك بعد أن تنامي، وسأغادرها قبل أن تستفيقي من النوم. . وسيكون انزعاجك قليلاً قدر المستطاع.

حركت كتفيها بعجز:

ـ لست أفهم، في لحظة تقول إنك تريدني، والآن. .

ـ أوه. . لا زلت أريدك كويريدا، لا تخطئي في هذا. . لكنني أفضل أن أنتظر على أمل أن تأتي إليّ راغبة. . في الماضي استخدمت كلمات مثل «الكراهية» و«الاشمئزاز» ضدي. . وقُلت في نفسي إنك لا تعنين ما تقولين. . لكن بعد الذي رأيته على وجهك ليلة أمس ما عدت واثقاً في شيء.

فكرت بعذاب: لكنني لم أعنِ تلك الكلمات. . ولو أنك نطقت بكلمة حب واحدة، لارتميتُ عند قدميك. . . بصوت مرتفع قالت:

ـ أنت شهم جداً سنيور. . هل. . هل سأراك وقت الغداء؟

ـ طبعاً، فنحن في نظر أهل المنزل يجب أن تكون لنا حياة طبيعية. وما زال عندنا ضيوف. . ومن الحكمة أن لا نعطي أحداً سبباً للأقاويل.

ـ أجل. . أفهم.

وتركته.

كانت في منتصف طريق العودة إلى المنزل، حين لاحظت الدم على يدها. . فتحت قبضتها لتجد شوكة لم تنتزع من ساق الوردة وقد جرحت راحة يدها. . وهي واقفة تحت أشعة الشمس، بللت الدموع وجهها.

ما إن حلت ساعة السباستا، حتى كانت تحس بالخدر في أطرافها لكثرة الإرهاق. . لعب دور العروس السعيدة لم يكن سهلاً في وقت تحس فيه أنها تتمزق أرباً. . ولم تتحسن الأمور بإتقان فيليب دور العريس المحب المهتم تحت أنظار الإعجاب من جميع الحاضرين.

أخيراً، في غرفتها، استندت إلى الباب، تأخذ نفساً عميقاً، لا تكاد تصدق أنها نجت أخيراً من الابتسامات الغامضة.

لو أنهم يدرون فقط. . خلعت ثيابها وأخذت دوشاً مطوّلاً قبل أن تلف نفسها بروبها الرقيق وتعود إلى غرفة النوم لتتهالك على السرير في عتمة

الغرفة المقفلة النوافذ.

كان انفتاح الباب آخر ما تتوقع، وجلست مجفلة مستندة إلى مرفقها تحدق بذعر واضح بفيليب يحمل صينية عليها إبريق عصير فاكهة وكوبين.

سألت:

ـ أنت. . ماذا تفعل هنا؟

ابتسم ساخراً:

ـ لا تقلقي. . أنا ببساطة أحقق ما يتوقعه مني الجميع بقضاء القيلولة بين ذراعي زوجتي المحبة. . أو هذا ما يفترض أن يظنوه. . أما الحقيقة فستبقى سرنا. . أتريدين بعض العصير؟

ـ لا.

ـ كما تشائين.

سكب عصيراً في كأسه:

ـ والآن، هل لنا أن نبقى هنا لنفكّر في صمت بما كان يمكن أن يجري بيننا. . أم نتحدث؟

كان هناك مقعد مستطيل قرب النافذة، تقدم إليه وتمدد فوقه. . فقالت على مضض:

ـ نتحدث. . كما أعتقد.

ـ خيار حكيم. هل تختارين الموضوع؟

ـ حسن جداً. . لماذا لا نتناقش في. . السياسة؟

نظر إليها بعجب:

ـ وهل أنت مهتمة بالسياسة؟

ـ أنا واثقة أنني أهتم بها. . على أي حال، أنت تجدها مثيرة. . أليس كذلك؟

ـ حقاً أميغا؟ كيف خطرت ببالك هذه الفكرة؟

تراجعت بسرعة:

ـ لكن معظم أصدقائك من السياسيين.

ـ لدي أصدقاء في نواحٍ كثيرة من الحياة. . ولم أشعر بميل إلى السياسة

بحد ذاتها.

أرادت أن تواجهه، أن تقول بجرأة: وماذا عن لوتشيا كويزس؟ فخانها لسانها. أحست أنها ضعيفة هشة.. ثم سؤال من هذا النوع سيقوده إلى الافتراض أنها تغار، مع كل ما يعنيه ذلك.. من الأفضل إذن أن تدع الأمر كما هو.

قالت كطفلة مهذبة:

ـ أنا آسفة.. لا بد أنني مخطئة.

رد بحدة:

ـ يبدو أنك ترتكبين أخطاء كثيرة.. لكن بما أننا تطرقنا إلى الموضوع، فقد أبلغني عرّابي أن هناك المزيد من الاضطرابات حول توزيع الأراضي إلى الشرق من هنا.. لذا سأكون ممتناً لك أن لا تركبي إلى أي مكان لوحدك.. إذا لم يكن بنجو مورتينيز متفرغاً لمرافقتك، يجب أن يفعل هذا أحد سوّاس الخيل.. هل كلامي واضح؟

ـ واضح تماماً.. هل صديقك.. الذي كنت تعرفه، متورط في هذا؟

ـ ليس مباشرة.. بالمقارنة مع بعض زملائه، هو الآن معتدل.. وهذه سخرية في الواقع.

ـ أين هو الآن؟

ـ مختبىء في مكان ما.

نظر إليها ساخراً:

ـ يبدو أنك مهتمة به كويريدا.. هل تروق لك حياة الخارج عن القانون؟

لا.. بل أنت من تروق لي.. جسدياً، فكرياً، وبكل طريقة ممكنة..

تحسّست التطريز على المفرش تحتها بإصبعها وأجابت: ربما.

قال وهو ينهض فجأة:

ـ إذن على الأقل أنت وابنة عمي آلانا عندكما شيء مشترك.. من الأفضل أن تغمضي عينيك العذراوين كويريدا، فسأخلع ملابسي لأستحم.

استلقت أريكا تصغي إلى صوت الماء في الحمام، وتتساءل ماذا يعني

بكلامه عن آلانا. هل من الممكن أن يكون هذا الرجل، بينيتو، هو الذي وقعت في حبه ومنعت من الارتباط به؟ إذا كان هذا صحيحاً، فبعض العجب من مرارتها يبطل.. صحيح أن المسألة لن تكون سهلة.. لكنها ستحاول التقرب من آلانا.

أدركت أن صوت الدوش توقف، وأدارت رأسها بعيداً.. ثم أحست أن فيليب قد عاد إلى الغرفة.. راقبته أريكا تحس بقلق مفاجىء وهو يتقدم عبر الغرفة ليقف إلى جانب السرير، ينظر إليها.

جلس على حافة السرير إلى جانبها، ينحني فوقها يريح يديه على السرير حولها، حتى أصبحت سجينة ذراعيه.

قالت بعجز: لقد.. وعدت...

رد بنعومة:

ـ وعدتك أن لا أجبرك.. ولم أقل شيئاً عن محاولة إقناع صغيرة.

انحنى يعانقها.. حين رفع رأسه، كان هناك مئة شيطان يتراقصون في قرارة عينيه.. وتمتم:

ـ أنت ترتجفين، هل هو الخوف، أم أن هناك سبباً آخر؟ أظن أنني سأكتشف الحقيقة يوماً.

شهقت أريكا وتصلب جسدها.

ـ استرخي ميا كويريدا.. لن أطالبك بشيء. أريد فقط مشاركتك القليل من السعادة..

القليل من السعادة! بدت كلماته تلامس أرهف مشاعرها.. من بواعث الشقاء أن تتنكّر للتجاوب الذي تتوق أن تعطيه.. في وقت كل ما كانت تريده هو ضمه.

فكرت بيأس: يجب أن أوقفه.. وقالت بصوت أجش:

ـ فيليب.. أرجوك..

ابتسم لها دون أن يفلتها:

ـ بكل سرور أمادا.. أي شيء ترغبينه.

وعلقت أنفاسها في حلقها: لا يجب..

ـ بل يجب.. آه كويريدا، تعرفين أنه يجب.

اتسعت عيناها إلى ما لا نهاية، تنظر إلى عينيه اللتين كانتا تفتحان لها آفاقاً جديدة من الأحاسيس لم تحلم بوجودها من قبل..

كانت العينان السوداوان مشرقتين بشدة وهما تراقبانها.. وهمس:

ـ قولي ما الذي يرضيك.

كان في صوته إلحاح غريب.. شيء يشبه التحدي.. كان مثله مثل الصبي الغرّ مع أول حب له. ما عدا.. ما عدا ذلك الغاوي الخبير الذي تخضع له المرأة بكليتها.

للحظة رأت لوتشيا كويزس، وبوضوح شديد، حتى كاد وجودها أن يتشخّص واقعاً في الغرفة المعتمة الدافئة، تتجاوب مع الرجل ذاته.

وسمعت نفسها تتأوه: لا.. أوه.. لا..

ثم تلوّت منفلتة من بين يديه تدفعهما عنها، تتقلب فوق الفراش إلى الجهة الأخرى تدفن وجهها الغادر التعيس في الوسادة.

تلفظ فيليب باسمها بصوت متهدج، وأطبقت يداه على كتفيها ليضمها إلى حضنه، وصاحت مُعْولة تقريباً:

ـ لا تلمسني!.. أنا.. أنا لا أستطيع التحمل!

ساد صمت طويل، ثم قال:

ـ ما هذا النفاق؟ أنت تريدينني.. أم أنك تصورت أنني لن أعرف؟

أبقت وجهها مختبئاً، وقالت باكتئاب:

ـ أوه.. بلى.. لكنني أتوقع منك أن تجعل تمثالاً من حجر يريدك.. والله أعلم كم من الخبرة لديك.

بدت الفكاهة في صوته:

ـ أتغارين مي أمادا؟

ـ لا.. لكنني فقط غير مكترثة، كيف أهتم في وقت.. أحب فيه شخصاً آخر؟

اشتدت قبضته على كتفيها حتى الألم:

ـ حقاً؟ ومن هو؟

ـ سأعقد صفقة معك سنيور.. لن أستفسر كثيراً عن حياتك الخاصة، مقابل أن تدع حياتي الخاصة وشأنها.

سقطت القبضة القاسية عن كتفيها.. واستلقت فوق السرير تسمعه يغادره، ثم سمعت حفيف ثيابه وهو يرتديها، بعدها صوت صفق الباب.

أصبحت لوحدها، وهذا كان هدفها، لكنه نصر عقيم تركها وحيدة خائفة.

كانت الأيام التي تلت ملوّنة بالكوابيس على أنواعها. غادر الضيوف ووجدت أريكا نفسها تعيش في الهاسيندرا في الجو المعادي القديم، عدا أن فيليب لم يعد درعها الواقية من هذا العداء.. كان نادراً ما يتواجد على الأقل خلال النهار.. حين يكون هناك يعاملها بلباقة في حضور الآخرين.. وعندما يكونان لوحدهما، كأنما لا وجود لها.

لم تتوقع أن يعود إلى غرفتها.. لكنه كان ينام فيها كل ليلة يقضيها في الهاسيندرا، أو أنها كانت تفترض أنه ينام، كانت أنفاسه هادئة، ولا يتحرك أبداً، أو يكلمها، أو يلمسها.. ووجدت هي النوم مراوغاً. وحين يأخذها النوم تراودها أحلام مضطربة، بحيث أنها غالباً ما تفيق والدموع على وجنتيها، وهناك حلم لا يغيب كان الأسوأ من بين الجميع.

كان يبدو أنه حلم لا يراودها إلا في الليالي التي لا يكون فيها فيليب هناك. وكانت بدايته متطابقة كل مرة، هي راكبة بين ذراعي فيليب فوق جواده الأسود، سالمة، دافئة، وآمنة، وكأنها ملكة العالم. كانت تحس بواقعية شديدة حتى أنها كانت تستشعر دفء جسده، لكن وهي تستدير لتبتسم له، كان كل شيء يتغير: الوجه تحت القبعة العريضة يصبح سواداً فاقد القسمات، والذراعان قضبان سجن.. عادةً، تستفيق من هذا الحلم في هذه المرحلة بالذات، تشهق لتسترد أنفاسها.. لكن، في إحدى الليالي، استمر الحلم وبدأ وجه الرجل المحتضن لها تتبدّى معالمه، وبصيحة احتجاج أدركت أنه هيوغو، يبتسم وبدأت تقاومه.. لكن قبضته كانت قوية، وكان يهزها، وتأوهت باسمه تدير رأسها يمنة ويسرة في رفض تام.

فجأة انفتحت عيناها، ورأت أجنحة الفراشة اللامعة مفتوحة فوقها..

ورأت كذلك أن فيليب هناك، ينحني فوقها، يمسك بمعصميها..
للحظات ظنت أنها لا تزال تحلم.. فعودته لم تكن متوقعة تلك الليلة..
ونامت وحيدة في السرير الكبير.

قالت شاهقة: كنت أحلم.

ترك معصميها وابتعد:

ـ وليس للمرة الأولى.

أرادت أن تقول: لا تتركني.. أرجوك ضمني إليك.. فهي لا زالت ترتجف. لكن الوقت كان قد فات.. خرج من السرير، ليقف لحظة يرتدي فيها روبه.

ـ سأحضر لك كريستينا لتُعدَّ لك شيئاً ساخناً يهدئك.. وسأمضي بقية الليل في غرفتي.

راقبت أريكا إقفال الباب خلفه.. وكأن في الجوّ ما يشير إلى حسم الأمر.. وكأنه قرر أن الوقت حان ليضع نهاية لكل ادعاء بحياة طبيعية في زواجهما.

لم تكن تريد الفنجان الذي جاءتها كريستينا لكنها شربته على أي حال.. ومهما كان يحتوي، فقد أثّر فيها كالسحر.. فحين فتحت عينيها أخيراً كان الوقت منتصف النهار.

ارتدت ملابسها بسرعة، ونزلت إلى الطابق الأسفل لتجد شجاراً حاداً دائراً.. فيليب كما بدا لها، ذهب باكراً إلى سانتو توماس ليعود أبكر مما يتوقع، ثم استدعى آلانا إلى مكتبه حيث أمكنها سماع صراخهما.. وهي مترددة في الردهة، تتساءل بعجز عما إذا كان يجب أن تتدخل أم لا.. انفتح باب المكتبة وخرجت آلانا ككرة نار غاضبة، تركض نحو السلم، واضح أنها تتدفق دموعاً.

لم تشاهدها وقت الغداء ولا وقت العشاء تلك الأمسية.. بينما كان فيليب في مزاج عكر لم تعهده فيه أريكا من قبل.. فبعد أن هاجم الجميع كلاً بدوره، وقفت دونا أنتيا ترتجف غضباً، وأعلنت بوقار متكبر أنها تنسحب إلى «الصالون» لأن شهيتها إلى الطعام أفسدتها قلة اعتبار نسيبها لها،

وأضافت بكلام لاذع:

ـ أنا آسفة لأن الزواج لم يُحسّن طباعك.

ونظرت إلى أريكا نظرة حقد وهي تخرج.

نظرت أريكا إلى طبقها النصف ممتلىء.. وجهها يحترق احمراراً. وهي ترفع رأسها واجهت نظرة مواساة من مانويل، فابتسمت له بقلق.

قال فيليب بصوت ناعم ينذر بالخطر:

ـ ربما تفضلان أن تكونا وحيدين.. لا تترددا في إخطاري إذا بدا لكما أن وجودي يشكل إزعاجاً.

رفع مانويل نظره إلى السقف، ودفع كرسيه إلى الخلف، ثم غادر الغرفة بصمت تاركاً الزوج وزوجته يواجهان بعضهما بعضاً.

شعرت أريكا أن من دواعي سعادتها لو التقطت كل قطعة من أدوات الطعام على الطاولة لترمي بها رأس فيليب، وهي تصرخ صراخاً عالياً.. لكنها قالت:

ـ لست أدري ماذا فعلت آلانا لتغضبك فيليب، لكن إذا استطعت المساعدة في شيء...

قاطعها بخشونة:

ـ إذن أنت راغبة في أن يكون لك بعض الفائدة هنا.. ربما لو كلّفت نفسك قليلاً بمصادقتها، وأن تكوني رفيقة لها، لكان بالإمكان تجنب هذا الموقف كله.

الظلامة في ما قال جعلتها ترتجف.. ففي الأسابيع الثلاثة البائسة التي انقضت، قامت بكل ما في وسعها لتكسب ود آلانا. لكن عدائية الفتاة لها كانت عصيّة.. كانت تقضي ساعات طويلة في غرفتها تقرأ كتباً أرسلت لها من مكسيكو سيتي.

سألتها أكثر من مرة إذا كان بالإمكان أن تخرجا معاً في نزهة على الخيل.. لكنها واصلت الرفض المتكبر.. وعرفت أنها استخفت بأوامر فيليب المباشرة وخرجت لوحدها راكبة، وغابت أحياناً ساعات طويلة.. مع ذلك، المرة الوحيدة التي حاولت فيها أريكا الركوب لوحدها، هرباً من

جو الهاسيندرا العدائي، واجهت مانويل، الذي وبخها على مخاطرتها غير المجدية، قبل أن يرافقها إلى الاسطبل، ليوجه انتقاداً أكثر قسوة لبنجو.. ربما هذا هو سبب تمكن آلانا دائماً من النجاة بفعلتها، فبنجو دائماً مشغول بمراقبتها.

قالت محتجة:

ـ آلانا تكرهني.. لقد حاولت.. حقاً حاولت..

قاطعها ساخراً:

ـ طبعاً حاولت أميغا.. فلا أنصاف حلول في جهدك لتحقيق التناغم معنا جميعاً.. ومن يعرف هذا أفضل مني؟

ارتجفت شفتها:

ـ هذا غير منصف! أنا.. أنا لم أطلب منك مغادرة غرفتي ليلة أمس.

رد متجهماً:

ـ لا.. كان هذا قراراً تمكنت من اتخاذه بنفسي، ويجب أن تكوني ممتنة له.. لأنني إذا عدت، ومتى عدت، إلى فراشك فسيكون هذا لإنهاء ذلك «النصف» زواج لنا.. أكنت راغبة أم لا.

ـ لست أفهم.

ـ لا؟ إذن اسمحي لي أن أشرح لك، يا محتالتي الصغيرة الفاتنة.. لا أرغب أبداً أن أستلقي إلى جانبك ليلة بعد ليلة أعاني آلاماً لعينة وأسمعك تنادين باسم رجل آخر في أحلامك.

شهقت.. فأكمل:

ـ بالضبط أميغا.. في المرة التالية التي تتلفظين فيها باسم رجل في فراشي، سيكون اسمي أنا. وفي ظروف أترك لمخيلتك أن تتصورها.

ـ لكن.. فيليب..

ـ أوه.. أنا واثق أن لديك تفسيراً مقْنعاً.. غشاشتي الجميلة.. من هو.. هيوغو هذا؟ أهو الحب الكبير الذي ذكرته لي مرة.. ذلك الذي لا زال يمتلك قلبك؟

ـ ليس الأمر كما تظن...

ـ ما هو إذن؟ في ليلة ما سآتيك.. وأقسم هذه المرة أن لا رعب، ولا تقوقع في الزاوية، لا أحلام برجل آخر ستبعدني عنك.

ودفع كرسيه إلى الوراء بغضب وغادر الغرفة.

تراجعت أريكا مرهقة في كرسيها دون إرادة منها ارتفعت عيناها لتلتقيا بعيني الدونا تيريسا، اللتين بدتا في مخيلتها تلمعان بإشفاق، وخاطبت أريكا الجمال العتيق بأفكارها: كان الأمر على ما يرام معك.. زوجك كان يحبك كثيراً حتى أنه أسس امبراطورية لتحكميها أنت..

تحول نظرها إلى الوردة الحمراء التي تحملها الدونا تيريسا، وتنهدت: حين أعطاك هذه الوردة كانت كل ورقة منها تعني له شيئاً.

تهيأت تلك الليلة للفراش تحس بالبؤس حتى أن كريستينا كانت ترسل لها نظرات حيرة.. واستلقت صاحية حتى بعد منتصف الليل تنتظر أن يفتح الباب. لكن فيليب لم يطلّ، ولم تعرف أتسعد لهذا أم تحزن.

لكن حين نزلت إلى الفطور في الصباح التالي، وسمعت أنه سافر إلى «سونورا» وسيغيب عدة أيام.. عرفت أنها كان يجب أن تحزن.

كانت دونا أنتيا على مائدة الفطور، تصعّد تنهيدات الشهادة.. لكن آلانا لم تكن هناك. بعد أن أنهت وجبتها قررت أن تمسك زمام شجاعتها بين يديها وتسعى إلى الفتاة.

بجهد كبير قرعت باب غرفة نوم آلانا.. بعد صمت قصير انفتح الباب وواجهتها آلانا.

ابتسمت أريكا، تشعر بالارتباك:

ـ تساءلت ما إذا كنت مهتمة بالخروج معي اليوم.

لمعت عينا آلانا:

ـ لا.. لن أفعل. هل أرسلك فيليب لتتحرّي أمري؟

كبتت تنهيدة:

ـ لا.. بالطبع لا.. ولماذا يفعل؟ أظنه فقط يرغب في أن نكون.. صديقتين.

نظرت إليها آلانا بازدراء:

ـ أنا لا أرغب أن أكون صديقة لك. ألم أوضح لك هذا من قبل؟ أنا لا أحتاج إلى صحبتك.. أو إلى منّتك عليّ سنيورا دو ميندرا.. من أنت لتتزوجي من عائلتنا؟ أنت نكرة لا أصل لك أو حَسَبْ.. إنكليزية بشعر كالقش.. نحيلة.. دون صدر أو ردفين.. فتاة وقع ابن عمي في حبها. لا بد أنه مجنون! لكن جنونه لم يدم. الجميع يعرف أنه سئم منك ولم يعد ينام في فراشك.

لم تستطع أريكا كبت شهقتها.. لكن ماذا كانت تتوقع غير هذا؟

حاولت مجدداً:

ـ آلانا.. حين يكون الناس تعساء يقولون ويفعلون أشياء لا يعنونها.. لذا سوف أتظاهر بأنك لم تقولي شيئاً.. أريد مساعدتك.. حقاً.

ردت بلؤم ينضح شراً:

ـ ساعدي نفسك إذن.. سنيورا. كم أنت غبية! لماذا تزوجك فيليب؟ لماذا لم يبقك في شقة في مونتراي كما يفعل مع نساء أخريات؟

ضحكت فجأة:

ـ اليوم لم يذهب إلى «سونورا» لوحده.. لوتشيا كويزس ذهبت معه. سمعته يدبر هذا أمس.. و..

رفعت أريكا يدها وصفعت وجه آلانا عمداً وبقسوة.

صاحت الفتاة المكسيكية وعيناها تقدحان شرراً:

ـ زانية، عاهرة، ساقطة! سأجعلك تندمين على يوم ولدت!

وصفقت الباب الثقيل في وجه أريكا.

تراجعت أريكا إلى الوراء لتلتقي بمانويل الخارج لتوه من غرفته.. وبدا خائفاً وهو يتفحصها:

ـ ما الذي جرى؟

قالت ببطء:

ـ نزاع أنثوي بسيط.

تأوه مانويل:

ـ أما زالت تغار منك؟ الله وحده يعرف السبب. لم تكن ترغب في

فيليب.. لكن أعتقد أن خيبة أملها في بينيتو...

وهز كتفيه.

قالت أريكا ببطء:

ـ ذكر لي فيليب هذا مرة.. لم يقل لي اسم الرجل، لكنني خمنت.

كشر مانويل:

ـ ليس من الصعب التخمين، هناك أكثر من قاسم مشترك بينهما. بينيتو ثائر ناري، وانجرفت آلانا بسحره.. ولا سبب يدعو لئلا تغرم به.. هو وفيليب كانا معاً في الجامعة عينها، وكانا صديقين منذ الطفولة، وكان زائراً دائماً إلى هنا. لذا شقّ علينا جميعاً أنْ قادَتْه أفكاره السياسية إلى المتاعب مع السلطات..

وتنهد مرة أخرى:

ـ... كان محامياً ناجحاً.. إلى أن قرر أن من الأخلاق أكثر أن يكون فلاحاً، أعطي قسماً صغيراً من أرضنا بنى فوقها كوخاً.. لكنه لم يعمل في الأرض فقد كان عملاً صعباً أكثر مما تصور.. والكوخ مهجور الآن.

ـ ليس تماماً.. فيليب وأنا أمضينا ليلة هناك.

استوعب مانويل هذا للحظات:

ـ إذن هناك حيث.. واضح أننا كنا نعرف أنكما كنتما في مكان ما معاً، لكنه لم يقل شيئاً..

قالت بصوت منخفض:

ـ مانويل.. ما الذي قاله لأمك عن كيفية لقائنا؟ هل تذكر؟

تأوه:

ـ وهل أستطيع أن أنسى؟ ماديريستا كانت غاضبة، تقسم بأن فيليب أهانها بإدخاله إحدى... نسائه تحت سقف منزلها.. فرماها فيليب بنظرة باردة وقال إنكِ ستصبحين زوجته.. فصرخت ماديرستا وقالت: غريبة.. مخلوقة التقيتها لتوك! فقال فيليب: لقد وقعت في حبها لحظة رأيتها.

صمتت أريكا تتذكر كيف سألت فيليب عن كيفية روايته لهم قصة تعارفهما وأنه قال لها: لم أقل الحقيقة لكنني اختلقت رواية مناسبة.

نظر إليها مانويل:

ـ أنت شاحبة أريكا.. ما الأمر؟ هل السبب هذا الشجار السخيف مع آلانا؟

ليت الأمر هكذا.. بل إنه ذلك الحقد المخيف في نفس الفتاة.

قالت بابتسامة متكلفة:

ـ ربما.. أحتاج إلى هواء نقي.. سأخرج في نزهة على جوادي.

ـ لكن ليس لوحدك. لا تحاولي هذا أبداً.. لقد أمر فيليب بدوريات حراسة مستمرة.. ولهذا كان غاضباً من آلانا. يقال إن بينيتو غاريميا موجود في المنطقة، ورشا أحد الفلاحين ليأتي برسالة إلى آلانا، يطلب منها موافاته إلى سانتو توماس. لكن الرجل أوصل الرسالة إلى فيليب، ولأنه حرّم عليها أي اتصال مع بينيتو، يمكنك فهم سبب تصرفه معها.

ويمكنها كذلك فهم رد فعل آلانا.. وأحست بتعاستها وهي تتجه إلى غرفتها لترتدي الجينز وتنتعل حذاء الركوب..

بعد أن غيرّت ملابسها، أخذت قبعتها وقفّازيها ثم توقفت لحظة تنظر إلى نفسها في المرآة.. لدى آلانا الحق.. فليس من حقها التدخل في شؤون الغير الخاصة، وشؤونها ترتع فيها الفوضى.. وما يحمل أكثر على المرارة أنها لو أخبرت فيليب بالحقيقة.. وأنها تحبه إلى درجة اليأس.. فلن يصدقها..

* * *

٨ ـ إبقي معي!

جلست أريكا مُسندة ظهرها إلى صخرة أحرقتها الشمس، تتساءل ماذا تفعل. لقد مرت ثلاثة أيام منذ شجارها مع آلانا والعلاقة بينهما لم تتحسن أبداً. فكرت بخشونة: فيليب عائد في اليوم التالي، ومن المؤكد أنه سيشعر بالجو المتوتر.. وسيلومها على الأرجح..

أصدرت صوتاً ما بين التنهيدة والتأوه.. هل هي وحدها في الهاسيندرا من يرى ما يجري؟ مانويل طبعاً منشغل كثيراً. يترك المنزل بعد الفطور ولا يعود في العادة إلاّ في وقت متأخر من النهار.. لكن ألا تتساءل الدونا أنتيا ماذا تفعل ابنتها؟

كل يوم، منذ رحيل فيليب، كانت آلانا تأخذ فرسها وتغيب لعدة ساعات. وحاولت أريكا أن تتعقبها أكثر من مرة، لكنها دوماً كانت تفقد أثرها.

افترضت أنها حمقاء لمجرد التفكير بمساعدة آلانا بعد كل الذي حدث بينهما.. لكنها تفعل هذا لأجل فيليب، وهذا يغير كل شيء.. سيكون غاضباً إذا ظنها وقفت متكاسلة تراقب ابنة عمه تدمر حياتها..

لم يساور الشك أريكا أبداً في أن آلانا تذهب كل يوم للقاء بينيتو ناريميا، وأنهما يتقابلان في الكوخ وإلى هناك كانت آلانا تتجه كل يوم.. وعرفت أريكا هذا لأنها تفحصت خريطة للأملاك يبقيها مانويل في مكتبه لكنها لم تجرؤ على الركوب إلى هناك بنفسها مع أنها أرادت هذا مراراً، في كل مرة كان شيء ما يمنعها، وتسترجع الذكريات التي تجدها الآن مؤلمة.

على الرغم من ذلك كانت اليوم مصممة.. ستركب إلى الكوخ وتواجه

آلانا وبينيتو.. وسوف تحاول إقناع الفتاة بأن لا مستقبل لها مع رجل حياته كلها اختباء.. لكن لو رفضت آلانا الإصغاء، فستضطر إلى إخبار فيليب حين يعود من «سونورا».. وقد تستخدم هذا التهديد لتجبر آلانا على التعقل..

لم تحاول اللحاق بآلانا هذه المرة.. بل ركبت قبلها، تترقبها في ظل بعض الصخور إلى أن يصبح من المفترض وصولها إلى الكوخ.

وقفت تنفض الغبار عن الجينز، وصفرت لبيلا التي أقبلت بكل طواعية إلى جانبها، فداعبت أنفها الناعم..

ركوبها منفردة أعطاها الكثير من الوقت لتفكر بفيليب ونفسها، وتعرف الآن أنها كانت بمنتهى الغباء لأنها سمحت لكبريائها أن تقف حجر عثرة في طريقها.. كل ما حققته من خلال عنادها هو أنها أعادته إلى لوتشيا كويزس، فهو ليس بالرجل الذي يتقبل بطيبة خاطر فترة عزوبية إجبارية.

وأنا.. فكرت أريكا بوحشية.. قدمته لها دون مقاومة.. كان يجب أن أقاتل، فلديّ قيمة وأهمية الجديدة عنده على الأقل.. وأنا أصغر منها سناً.. وأستطيع أن أعطيه طفلاً يريده.. كل ما يجب أن أفعله هو تقبل هذا الزواج على أساس شروطه.. أن أذهب إليه وأقول له إنني أريده.

مع أنها تأكدت من الطريق جيداً، إلا أنه كان أبعد بكثير مما ظنت، وأدركت أنها لن تستطيع العودة إلى الهاسيندرا وقت الغداء. حسناً.. ربما لن يفتقدها أحد.

شدت لجام بيلا ونظرت إلى أسفل المنحدر نحو البناء الصغير، وضاقت عيناها حين أدركت أن هناك خيط دخان يتصاعد من المدخنة..

تقدمت بحذر، مع أنها لم تر جواد آلانا مركوناً في أي مكان ولا وسيلة نقل أخرى قريبة. ترجلت وربطت رسن بيلا بسياج مناسب. لم تسمع صوت حركة من الداخل. حتى وهي تدق الباب بحدة لم تسمع رداً.. فدفعته لينفتح، ودخلت.

كان هناك دلائل واضحة على وجود شخص ما. كانت النار مشتعلة ووعاء الطبخ معلقاً فوق النار، يتصاعد منه البخار والرائحة اللذيذة التي

أزكمت أنف أريكا، ويذكرها كم مضى من وقت منذ تناولت فطورها.

كان المكان كذلك أكثر نظافة، ولاحظت وجود أدوات طعام، والفراش مرتب، مع وسائد وبطانيات.

الطعام كان يدل على أن آلانا وعشيقها سيستخدمان الكوخ عما قريب.. حسناً، ستضع بيلا في السقيفة الخربة في المؤخرة وتنتظر وصولهما.

سألت نفسها: منذ متى يحدث كل هذا؟.. نظرت إلى ساعتها، لقد تجاوزت وقت الغداء بكثير، وأملت أن لا يكون غيابها قد أثار ذعراً. لكنها كانت تأمل أن لا يطول انتظارها أكثر من هذا.. وأحست بأن الكوخ أخذ يزداد حرارة.. بعد بضع دقائق، وضعت ذراعيها على الطاولة وأراحت رأسها عليهما.. وأكدت لنفسها أنها لن تنام، لكن لا بأس لو أغمضت عينيها لحظة فهذا لن يضيرها.. فمن المؤكد أنها ستسمع أصوات وصولهما.

أخيراً جلست مجفلة تحس بدوار.. لم تعرف ما الذي أيقظها.. لكن بكل تأكيد لم يكن وصول أحد. كانت لا تزال وحدها والنار تكاد تلفظ أنفاسها.

وقفت أريكا تمدد أطرافها المتشنجة.. ستجد بعض الحطب وتعتني بالمسكينة بيلا. فتحت باب الكوخ وخرجت إلى الشرفة، لكنها لم تسمع صهيل ترحيب.. لقد اختفت المهرة.

للحظات وقفت أريكا مسمرة دون حراك. نظرت إلى سياج الشرفة حيث عَقَلت المهرة، تحاول جمع أفكارها.. السياج سليم لذا لا يمكن أن تكون بيلا حطمته لتخلص نفسها.. وهذا يعني أن شخصاً ما تعمد إطلاقها.

فكرت بعجز: إنها آلانا.. ومن غيرها؟ استدارت لتعود ببطء إلى الكوخ.. أيمكن أن تكون طوال ظنها أنها تتقفى أثر الفتاة، كانت الفتاة بدورها تتقفى أثرها.. وانتظرت الفرصة السانحة لتركها عالقة هنا؟ على أي حال، كانت قد حذرتها من أنها ستجعلها تندم.. وافترضت أريكا أن

آلانا قد عرفت أنها تلاحقها في الأيام الأخيرة وقررت أن تلقنها درساً.

لكنها كانت قلقة على بيلا.. لا يمكن لآلانا أن تعيدها إلى الهاسيندرا دون كشف نفسها، وأملت أن لا تحل رباط المهرة هكذا وتتركها على سجيتها.

لكن بكل تأكيد لا يمكن لآلانا أن تكون حقودة إلى هذا الحد.. ماذا تأمل أن تكسب على أي حال؟

سيغضب فيليب حين يعرف أن أريكا خالفت أوامره وركبت وحيدة.. لكن هل يكفي هذا آلانا؟ كان الشر في عيون الفتاة يوم أعلنت رغبتها في الانتقام أكثر عمقاً من هذه الخدعة الطفولية.

مرّ الوقت متثاقلاً.. وأصبحت الآن جائعة حقاً، فأكلت قليلاً من اليخنة التي على النار وهي تفكر بحسد بالغرفة الباردة المعتمة في الهاسيندرا.. ستكون آلانا الآن في المنزل تجلس بوجه بريء.. والآخرون يتساءلون أين أريكا.

أصبح الكوخ أكثر حرارة.. الوقت الآن أصبح متأخراً، وحان وقت القيلولة. فخلعت حذاء الركوب واستلقت فوق السرير، تتذكر آخر مرة استلقت فيها هنا وذراع فيليب حولها تشدها إليه بقوة.. وتنهدت.. تتقلب بغير ارتياح على الوسادة. إنه متمسك جداً بالشرف.. فكرت بمرارة.. لو أنها تجاوبت معه تلك الليلة لكانت خففت عن نفسها الكثير من المعاناة، ولو كان ذلك على حساب كرامتها. لكن الكرامة لا تبدو بمثل تلك الأهمية حين تكون المرأة غيورة ووحيدة..

أخيراً أخذتها غفوة مرة أخرى.. واستيقظت لتجد أنه وقت الغروب.. إذا لم تكن حذرة فسيهبط الظلام قريباً، وستحتاج إلى نور القنديل، وإلى إشعال النار.. جلست بقلق، ثم بسطت قدميها إلى الأرض، وسرعان ما أجفلت لظنها أنها سمعت وقع حوافر جواد.. لكنها أرجعت ذلك إلى مخيلتها المتوترة.. مع ذلك. أطرقت رأسها.. تصغي بانتباه، وقلبها يقفز بأمل مفاجيء.. إنه صوت جواد، شخص ما قادم. ربما تكون آلانا قد ندمت وها هي تعيد إليها بيلا.. قفزت لتخطو خطوتين

سريعتين نحو الباب..

لكن الباب انفتح، ودخل فيليب.

جمدت أريكا تنظر إليه مشدوهة.. إنه آخر من تتوقع أن ترى.. لم يكن من المنتظر أن يعود قبل الغد.

قالت متلعثمة:

ـ فيليب؟ هل قالت لك أين أنا؟ أرجوك لا تغضب.. كان الأمر.. مجرد مزحة..

رد بصوت منخفض:

ـ أجل.. قالت لي. أما بالنسبة لغضبي، وما إذا كان هذا مزاحاً أم لا كما تسمينه، فأنا لا أضمن شيئاً.. طبيعي أنك مندهشة لرؤيتي.

ـ حسناً.. أجل..

لكن قبل أن تكمل، قاطعها:

ـ ولا شك أن أملك خاب كذلك.. لقد انتظرت طويلاً لأجل لا شيء، ولا بد أنك تسألين نفسك لماذا أنا هنا وليس مانويل.. ويجب أن أقول لك، إن ابن عمي كان من حسن حظه أن يصاب بكسر في عظم الترقوة، ولن يتمكن من الانضمام إليك.. لقد سقط عن جواده هذا الصباح.

ـ ينضم إليّ؟ لست أفهم.

قال ساخراً:

ـ ولا أنا فهمت في البداية.. لقد أنهيت عملي في سونورا أبكر مما توقعت، وعدت إلى الهاسيندرا لأراك ولأحاول وضع الأمور في مسارها الصحيح.. أليس هذا مضحكاً؟ وجدت الجو مشحوناً.. مانويل مصاب، والطبيب يعالجه، ثم طلبت إحدى الخادمات أن تكلمني على حدة لتقول إنها قبل أن يؤتى بمانويل مصاباً، كانت تنظف غرفته ووجدت هذه..

ومد يده مفتوحة لترى فيها الفراشة التي أهداها إياها.

ـ لكن.. لكن.. هذا مستحيل!

ـ حقاً؟

أكمل بتركيز بارد رهيب:

ـ سألتها أين وجدتها.. أخيراً، وعلى مضض، قالت لي.. في فراش سنيور دون مانويل.

ـ إنها تكذب.

ـ إنها امرأة طيبة شريفة خدمت عائلتنا سنوات عديدة.. وهي تعطيني.. هذا..

ورمى الفراشة عند قدميها:

ـ.. طفرت الدموع من عينيها.

قالت يائسة:

ـ فيليب.. أقسم لك، لا أعرف كيف وصلت إلى هناك.

ـ ألا تعرفين يا زوجتي الجميلة؟ إذن تعوزك سعة الخيال.. فهناك سبب واضح خطر ببالي.. لكن لديك العديد من المزايا الأخرى، المزايا المنزلية مثلاً.. لقد اتخذت مكاناً قذراً وحولته إلى عش حب.. أهنئك!

صاحت شاهقة:

ـ لا يمكنك أن تظن أنني فعلت كل هذا! هكذا كان كل شيء ساعة وصلت.. الطعام والنار.. كل شيء.. كنت أبحث عن آلانا.

ـ مصادفة غريبة تشيكا.. فهي كذلك كانت تبحث عنك.. لكن على مسافة بعيدة جداً من هنا.. لقد وجدت الفرس تتجول لوحدها قرب الهاسيندرا، فأخذتها وخافت أن يكون شيء ما قد أصابك.. بنجو وبعض الرجال فتشوا في الأمكنة القريبة. لكن حين لم يجدوا لك أثراً.. اعترفت آلانا أنها تعرف مكانك.

كانت الشمس الحمراء تأفل غائصة في الأفق.. وأكمل:

ـ قالت لي إنها بقيت صامتة من قبل لأنها تحب أخاها.. لكنها كانت تعرف منذ مدة أنكما تلتقيان هنا سراً.. وأنها سمعته يذكر المكان لك ذات صباح خارج غرفة نومه.. هل تنكرين هذا؟

ـ أبداً.. لكننا كنا نتحدث عن صديقك بينيتو ماريميا.. وإمكانية مقابلته لآلانا هنا.. اسأل مانويل إذا كنت لا تصدقني.

ـ أنا لا أصدقك، أما استجواب مانويل فقد أعطاه الطبيب ما يجعله ينام.. لقد قلت لك إنه محظوظ لكسره عظم ترقوته، فلو لم يحدث له هذا لدققت عنقه.

كان في صوته وحشية أرعبتها.. وقالت تكاد تبكي:

ـ فيليب.. أرجوك.. لا يمكنك تصديق كل هذه الأكاذيب؟ آلانا تكرهني وتعرف هذا.. وستقول أي شيء..

قاطعها بحدة:

ـ أخذت هذا بعين الاعتبار.. مع ذلك فبنجو مورتينيز ليس لديه سبب ليكرهك.. ولقد قال لي بكل براءة إنك غادرت الهاسيندرا عدة مرات هذا الأسبوع بحجة الذهاب لمقابلة مانويل.

ـ أوه.. يا إلهي أجل.. لقد قلت هذا.. لكنه كان مجرد عذر لفقته.. كي يتسنى لي الخروج لوحدي.

ـ وحدك مع عشيقك.. متلهفة لأن تكوني وحيدة معه.. ولم تتمكني من ربط فرس ثمينة كما يجب.. لا بد أن مانويل نجح كثيراً معك.. والساعة التالية ستنبئني بالخبر اليقين!

سألت بذعر: ماذا تعني؟

هز كتفيه:

ـ لأن حادثة طارئة حرمتك من عشيقك لا داعي لأن تحرمي من بعض التسلية. وسيكون من المثير للاهتمام أن أعرف ماذا اكتشفت بين ذراعي مانويل.

بدأت تتراجع، لكنه لحق بها إلى أن منعت الطاولة تقهقرها، فصاحت بصوت يائس:

ـ فيليب! أقسم لك أن مانويل ليس عشيقي.. المرة الوحيدة التي كنت فيها بين ذراعيه كانت ساعة الرقص في يوم الزفاف..

وتلاشى صوتها لإدراكها أنها أخطأت في تذكيره. قال:

ـ أذكر هذا جيداً.. أتظنين أنني لم أركما معاً؟ لم أر الطريقة التي كنت تنظرين فيها إليه؟ تبتسمين له؟ أيتها العاهرة.. أنت لم تبتسمي لي هكذا

يوماً!

أمسك بشعرها، وشد رأسها إلى الوراء، يجبرها على التحديق فيه.

ـ ابتسمي لي الآن.

قبضته على شعرها آلمتها، فتأوهت ألماً وخوفاً وهي تتوسل إليه:

ـ فيليب.. لا.. أرجوك..

وبدأت تقاوم فأحنى رأسه يعانقها.. عناقاً قاسياً ومؤلماً، بل مجرد جهد مفتعل لإسكات احتجاجاتها.

حملها ليرميها فوق السرير، ثم ينضم إليها على الفور.. وتكسر صوتها:

ـ أوه.. يا إلهي!.. لا! ليس هكذا.. أرجوك! ليس هكذا!

ـ هل تجدين أن طريقتي تنقصها البراعة سنيورا؟ متى حرمت رجلاً جائعاً من طعامه، يجب أن تتوقعي منه أن ينتزع الفتات بالقوة.

تصلب جسدها بشكل غريزي، يرفض الغزو الذي تتعرض له، وانفلتت الدموع من تحت جفنيها المغمضين، لتنحدر ساخنة حارقة على وجنتيها.

وجمد فيليب.. وكانت ممتنة لهذا، فلو تابع أكثر لأغمي عليها.

أحست بيديه تحيطان بوجهها، تملسان شعرها المشعث إلى الوراء، ففتحت عينيها ببطء رغماً عنها. كان وجهه بعيداً قيد أنملة من وجهها، وبالرغم من العتمة في الكوخ، رأت الإدراك المذعور في عينيه.. ثم ابتعد عنها ليستلقي على ظهره ويغطي عينيه بذراعه.

استلقت أريكا بدورها ترتجف.. أخيراً جلست ببطء.

قال فيليب بصوت بالكاد عرفته:

ـ ابقي جامدة.

ثم جاء بحذاء الركوب ووضعه في قدميها، بعد ذلك لفها بالبطانية، ورفعها بين ذراعيه ليحملها إلى الباب.

في الخارج، رفع أميغو الأسود اللون رأسه وصهل بنعومة.. ونظر إليها فيليب فجأة بعد أن توقف:

ـ پور ديوس أريكا.. كلميني.. قولي شيئاً!

قالت بهدوء:

ـ قالت لي آلانا إنها ستجعلني أندم على يوم مولدي، ولقد نجحت إلى أبعد من أكثر أحلامها جنوناً.

كانت الأنوار تتلألأ حول الهاسيندرا وهما يقتربان.. وهو ينزلها، همست:

ـ أستطيع أن أسير.

لكنه تجاهلها مجدداً، وحملها إلى الردهة التي بدت مليئة بالناس، كلهم يتحدثون ويصيحون دفعة واحدة. وأدارت أريكا وجهها إلى قميص فيليب.. ممتنة للبطانية التي تلفها.

سمعت صوت دونا أنتيا يرتفع ناحباً..

ـ فيليب.. أين كنت؟ لقد اختفت آلانا.. هربت.. لقد هربت مع ذلك الوغد، ذلك المجرم الخارج عن القانون بينيتو ناريميا! يجب أن تلحق بها.. يجب أن تعيدها فوراً.. يا للعار.. يا للخزي!

توقف فيليب، وتلفظ بكلام مختصر بمعنى داعر، وبالإسبانية.. وشهقت دونا أنتيا.. وعلت وجهها حمرة قاتمة، وتهاوت إلى الخلف تسندها خادمتها بقلق، بينما أكمل فيليب صعود السلم يترك صمتاً رهيباً خلفه.

أخذ أريكا إلى غرفتها، ووضعها بلطف على المقعد الخشبي أمام طاولة الزينة.

ـ هل أحضر لك كريستينا؟

ـ لا.. أرجوك.

كانت البطانية تهبط ببطء، ورأت الكدمات تظهر على كتفيها وعرفت أن هناك علامات أخرى على جسمها، فالكدمات تظهر عليها بسهولة.. ومعاملته لها لم تكن لطيفة.

بعد تردد قصير، ذهب فيليب إلى الحمام. وسمعت صوت الماء..

تركت البطانية تهبط إلى الأرض، ثم نظرت إلى المرآة، لترى أن فيليب عاد، يقف خلفها، ينظر إلى العلامات على جسمها بتأثر ظاهر جعلها تكاد

تبكي.. ليس لأجلها.. بل لأجله.

كان المغطس نصف ممتلىء بالماء الساخن المعطر، واسترخت فيه بامتنان.

حين خرجت من المغطس، كان فيليب بانتظارها يحمل منشفة لفها بها، ثم أمسك يدها يقودها إلى غرفة النوم، حيث رفعها إلى السرير العريض المرفوع الأغطية، كان وجهه مشدوداً متألماً، وليس في عينيه أي تعبير.

قال بهدوء: نامي جيداً.

ثم استدار، لكن أريكا مدت يدها تمسك بكم قميصه.

ـ فيليب.. ابقى معي..

تردد طويلاً.. حتى أنها ظنت أنه سيرفض، ثم هز رأسه، وجلس على السرير، ليخلع حذاءه. ودون أن يخلع ثيابه، استلقى إلى جانبها لكن خارج الأغطية، والتفت ذراعه حولها، يضمها إليه بلطف، لتريح رأسها على كتفه.. لم يكن هناك عنف ولا غضب أو خوف، ولا مشاعر متأججة.. ولا حتى رجل وامرأة.. مجرد شخصين متعبين تعيسين يتعانقان لمزيد من الراحة.. وفكرت: أنا آمنة! قبل أن تغفو.

كانت لا تزال تشعر بالأمان في الصباح حين استيقظت.. وامتدت يدها تتلمس فيليب لتطمئن حتى قبل أن تفتح عينيها.. لكنها كانت لوحدها.. والمكان إلى جانبها فارغ.. فجأة أصبحت صاحية متسعة العينين، وجلست مستوية مذعورة.

كان هناك شخص يراقبها.. فاستدارت لترى لوتشيا كويزس تجلس قرب السرير، تبدو جميلة أنيقة بثوب أسود وأبيض.

للحظات ظنت نفسها لا تزال نائمة، تحلم بكابوس آخر.. ثم أدركت أن ما تراه واقعي.. فأسرعت ترفع الأغطية فوق نفسها، وخداها بلون الأرجوان.

ابتسمت لوتشيا كويزس، وجهها لطيف أليف:

ـ بوناس داياس سنيورا.. طلب مني فيليب الجلوس معك.. لم يردك أن تستيقظي وأنت لوحدك.

ردت أريكا متصلبة:

ـ كان هذا.. حسن لياقة منه.

وحاولت لف الغطاء بشكل محكم أكثر على صدرها.

ووقفت سنيورا كويزس:

ـ هل تكونين مرتاحة أكثر في ثوب النوم؟ أخبريني أين هو وسأحضر لك واحداً.

دون إرادة أرشدتها، وعادت لوتشيا بثوب أصفر شاحب على ذراعها. دسته بلباقة فوق رأس أريكا، واستدارت بينما أريكا تكمل ما تبقى. وتمنت أريكا لو ترحل لكنها عادت إلى مكانها قرب السرير.

قالت:

ـ دونا أريكا.. أعتقد أن أحداً ما كان يكرر أمامك شائعة قديمة العهد.. لقد عرفت يوم العرس أن هناك شيئاً خاطئاً.. فلديك عينان صادقتان. لذا هل لي أن أتحدث بصراحة معك؟

نظرت أريكا إلى يديها المضمومتين:

ـ إذا رغبت في هذا.

ـ أرغب فعلاً.. منذ زمن بعيد كنت وحيدة يائسة.. كان زوجي ميتاً، وكنت أحبه.. ثم وجدت أن كوني أرملةً، لا يمنعني من أن أكون امرأة.. وكان فيليب صديقاً لزوجي، صديقاً للعائلة، وصديقاً لي أيضاً.

صمتت لحظات تفكر:

ـ لفترة قصيرة.. كنا أكثر من.. صديقين.. هذا صحيح.. وكانت فترة رائعة.. قلت لك إنني سأكون صريحة معك.. لكن كل شيء انتهى. وكان هذا منذ وقت أطول مما أذكر.. وعادت لي حياتي مرة أخرى، وفيليب كما أرجو ما زال صديقي.. لكن ليس أكثر من هذا.

قالت أريكا بصوت منخفض:

ـ لكنه ما زال يزورك سنيورا.. أتنكرين هذا؟

ـ لا.. لكن زياراته الأخيرة والاجتماعات التي حضرناها معاً، لم يكن لها هدف شخصي.. كان دافعها اهتمامات مشتركة لأجل أخي.

ـ أخوك؟ لا أظن أنني أفهم؟

تنهدت سنيورا كويزس:

ـ ألم يذكر أحد لك دونا أريكا أن بينيتو ناريميا هو أخي؟ كان فيليب يحاول استخدام نفوذه ليحصل له على العفو، فالرجل الذي أصابه بجراح استعاد عافيته.. والشكر لله.. هكذا لن تكون التهم التي سيواجهها قاسية.. سامحيني.. لكن هذا مصدر حزن كبير لي.. لطالما آمنت أن بينيتو سيصبح رجلاً عظيماً.. محامياً كبيراً.. بدلاً من ذلك اختار حياةً جعلته خارجاً عن القانون.

ـ وكان فيليب يحاول مساعدته؟

ـ فيليب لم ينس صداقتهما القديمة مع أنه لا يستطيع التسامح مع ما فعله بينيتو.. والآن بالطبع لديه سبب إضافي للغضب منه.

قالت أريكا ببطء: أوه.. آلانا!

تنهدت لوتشيا:

ـ سي.. ولهذا أنا هنا.. وصلا إلى منزلي ليلة أمس، يطلبان أن أساعدهما.. لكنني بالطبع رفضت.. لا يمكن لبينيتو أن يتحمل مسؤولية زوجة، مع كل المصاعب التي في طريقه.. قلت لهما على الفور إن عليهما العودة إلى هنا، فذعرت آلانا خوفاً وقالت إنها لن تستطيع العودة أبداً.. فسألتها طبعاً.. لكن بينيتو كان من انتزع الحقيقة منها. واعترفت بكل شيء.. كراهيتها لك، غيرتها، رغبتها في معاقبة فيليب.. والوسائل الرهيبة التي استخدمتها للانتقام.. كانت تعرف أنك تشكين بها، وقررت أن تنصب لك فخاً في الكوخ.. وسرقت فراشتك وتركتها في غرفة مانويل، في حال حدوث شيء خاطىء لخطتها الأصلية.. ولم تكن تعرف بالطبع أن مانويل سيقع ويكسر عظم كتفه، لكن كان من نعم الله أن حدث هذا له وإلا لكانت النتيجة رهيبة.

مالت إلى الأمام تمسك يد أريكا:

ـ سنيورا، أطلب منك أن تصدقي بأن أخي لو عرف بما كانت تنوي عليه لمنعها.. لقد ارتاع جداً لتصرفها.. مع ذلك لا يظنها شريرة حقاً.

مجرد مدللة مهملة، مضللة، تأكلها الغيرة من أي شخص أكثر سعادة منها.

أحست أريكا بألم داخلي. هل ينطبق هذا عليها حقاً؟ هل بدت سعيدة أمام الآخرين؟ أمن الممكن أن أحداً لم يشعر بتوترها الداخلي؟

قالت:

ـ وماذا تقترحين سنيورا.. أن أتغاضى عما فعلته؟

كشرت لوتشيا كويزس بحزن:

ـ هذا مستحيل.. لقد أعلن فيليب أنه لن يأويها تحت سقف بيته بعد الآن.. فاضطررت لدعوتها للإقامة عندي.. تستطيع مساعدتي في رسائلي واتصالاتي، ويمكن أن تكون مفيدة في مجالات عديدة. وسيصرفها هذا عن التفكير بنفسها كثيراً.. وفيما بعد ربما أكملت تعليمها.. هذه المرة ستذهب اعتراضات أمها أدراج الرياح.. كما أعتقد.

نظرت أريكا إلى الفراشات على الغطاء:

ـ هل كان فيليب.. غاضباً جداً منها؟

هزت سنيورا كويزس كتفيها:

ـ لم أرغب في مواجهته، ولم أعرف ماذا قال لها، فلقد تحدثا في خلوة، لكنها فيما بعد بكت كثيراً ولا يمكن لأحد أن يراها دون الإشفاق عليها.. أما أمها، فلا أظن دونا أنتيا ستجرؤ على الكلام ثانية، إنها تشعر بالخزي لما فعلته آلانا.

لم تستطع أريكا سوى الإشفاق على الأم وابنتها. لقد شاهدت بأم العين غضب فيليب واحتقاره لها.

أحست أن السنيورا كويزس تنظر إليها ووجهها مقطّب متسائل، وقالت بسرعة:

ـ أعتقد أن علي ارتداء ثيابي لأرى ما أستطيع عمله لاستعادة السلام.

ابتسمت لوتشيا:

ـ أظن من الأفضل أن تبقي حيث أنت.. هناك هدنة من نوع ما.. وآلانا توضب ثيابها.. سأغادر معها قريباً.. من اللطف منك دونا أريكا أن تسمحي لها بالذهاب دون مواجهتك شخصياً.. والآن سأذهب لأقول

لفيليب إنك استيقظت.

بابتسامة صغيرة، وقفت وانسحبت.

مالت أريكا فوق الوسائد، تحاول تحليل كل ما سمعته.. كان يجب أن تكون مبتهجة بتأكيدات لوتشيا كويزس لها.. وأخذت جذوة الغيرة المؤلمة التي كانت تلسعها كلما فكرت فيهما معاً تتلاشى. وأخذت أسنانها تحفر شفتها وهي تترقب أن ينفتح الباب.

وهو يدخل، بدا وكأنه لم ينم منذ أسبوع.. ليلة أمس واساها، وهي تريد أن ترد له المواساة الآن.. وهو يتقدم ليقف قرب السرير، رفعت نظرها إليه، شفتاها تتكوران ترقباً وخجلاً.. ولو أنه رد لها ابتسامتها لرمت نفسها عليه.. لكن لم يكن هناك دفء في عينيه.. حين تكلم، كان صوته بارداً ورسمياً:

ـ هل أنت بخير هذا الصباح؟ الطبيب يزور مانويل، فإذا رغبت سأطلب منه معاينتك.

احمر وجهها: أنا بخير.. حقاً.

ـ هذا جيد.. إذا أردت الفطور، ستأتيك به كريستينا.

ـ شكراً لك.

أوه.. يا الله.. ما الذي جرى؟ إنه يعاملها وكأنها ضيفة غريبة تحت سقف بيته، وبكل أدب واحترام.

قال:

ـ فيما بعد، بعد أن تأكلي.. ربما تفضلت بالمجيء إلى مكتبي.. هناك أمور يجب أن نناقشها.

قالت بخجل:

ـ ألا يمكن أن نتكلم الآن؟

وصاح قلبها.. أحضني.. ونم بجنبي.

ـ أفضل أن أحدثك في المكتبة.. لدي أشخاص يجب أن أراهم ومكالمات أجريها، ترتيبات محددة أنهيها.. أنا واثق من تفهمك.

ـ ترتيبات حول آلانا؟

رأت عضلات فكه تتقلص:

ـ أجل.. من بين أشياء أخرى.. لو عذرتني الآن.

أجبرت نفسها على أن تأكل بعض الطعام الذي جاءت به كريستينا.. ثم استحمت وارتدت ملابسها بعناية. وتبرّجت، وارتدت فستاناً أخضر بسيطاً، تنورته بشكل الجرس، مع حزام عريض يلفت الانتباه إلى خصرها النحيل.

كانت تنوي وضع الفراشة في شعرها، لكنها تذكرت أنها لا زالت ملقاة على أرض الكوخ حيث رماها فيليب.. وتصاعدت دموع مفاجئة إلى عينيها وهي تنظر إلى نفسها في المرآة.. لماذا استخدمت آلانا هذه القطعة من المجوهرات من بين كل ما أهداها إياه فيليب؟ لقد أحبتها كثيراً.. لكن هذا بالضبط سبب استخدامها لها.. وأحست كأن أحداً قد أفسد عن قصد طلسماً سحرياً جالباً للحظ..

لزمتها شجاعة كبيرة لتنزل.. هل تذهب مباشرة إلى مكتبته أم تنتظر في «الصالون» إلى أن يرسل في طلبها؟

كانت تقف عند أسفل السلم شاردة الذهن مترددة حين رن صوت الجرس عالياً، وجعلها تقفز رعباً.

وظهر بيدرو ليرد.. فاستدارت أريكا إلى الصالون، لترى ما إذا كان هناك زوار، فمقابلتهما ستؤجل.. وأحست بشيء من الارتياح.

سمعت صوتاً أنثوياً مألوفاً يقول:

ـ أرغب في رؤية سنيوريتا أريكا ريردون.. هل هي هنا؟

إنها نيفيل.. مع تنحي بيدرو جانباً، دخلت الردهة يلحق بها سكوت.. فتحركت أريكا إلى الأمام بارتباك، وركضت نيفيل إليها تطوقها بذراعيها:

ـ أريكا.. أوه.. أريكا.. أنت هنا! لم أصدق ما ورد في رسالتك. قولي إنها غير صحيحة. أوه أريكا.. ذلك الرجل.. ماذا فعل بك؟

* * *

٩ ـ عندما يصبح الحب قيداً

بادلتها أريكا العناق. . ثم نظرت إلى بيدرو الذي كان يبدو في حالة مزرية. . بللت شفتيها وقالت:

ـ هذا كل شيء بيدرو. . نيڤيل. . تعالي إلى الصالون يمكن أن نتكلم هناك.

قالت نيڤيل بحزم:

ـ لن نبقى طويلاً. . سنرحل في الحال وستأتين معنا. . هذا الزواج يجب أن لا يحدث. . لن أسمح به. المتوحش. . الطاغية. . لن يفعل بك هذا!

رأت أريكا سكوت ينظر إلى ورائها ويتغير وجهه وهو يضع يداً محذّرة على كتف زوجته.

قال فيليب بصوت حريري:

ـ أهلاً بك في منزلي سنيوريتا سانتوس. . أم عليّ أن أناديك باسم آخر؟

نظرت إليه نيڤيل متحدية، وتدخل سكوت بسرعة:

ـ دون فيليب. . لا بد أنك تتساءل عن سبب هذا التطفل. . لكن الواقع أن زوجتي وصلتها رسالة من أريكا أزعجتها كثيراً، وأصرت على المجيء إلى هنا لتسوية الأمور.

رد فيليب ساخراً:

ـ هل لنا أن ندخل الصالون ونطلب المرطبات؟

قالت نيڤيل وهي تتجه إلى حيث أشار:

ـ لا نرغب في المرطبات. لقد جئنا لأجل أريكا. . لقد جاءت إلى هنا لتنقذني. . ولن أسمح لها أن تضحي بنفسها مكاني.

قال بيرود:

ـ فات الأوان سنيورا. . وأنا آسف إذ أعلمك أن التضحية حصلت!

شهقت نيڤيل:

ـ إذن لقد تأخرنا كثيراً؟ أريكا لا يمكن أن تكوني تزوجت! لا يمكن. . كيف أجبرك على هذا؟ يا إلهي! ما كان يجب أن أسمح لك بالمجيء إلى هنا!

تمتم سكوت:

ـ سنيور أنا لا أريد توزيع الملامة جزافاً. . لكن يبدو أن أمامنا مشكلة كبيرة. والآن أريد تأكيدك أنك لم تستخدم أي عنصر ضاغط على أريكا. .

هز فيليب كتفيه مقاطعاً:

ـ لا أستطيع أن أؤكد لك هذا. . لقد عرضت على أريكا خياراً بين الزواج مني وفضيحة السجن.

انفغرت شفتا سكوت بعجز، واستدار بصمت. صاحت نيڤيل:

ـ طاغية، مستبد! يجب أن تعاني ما حييت بعد الذي فعلته بها. أوه يا مسكينتي أريكا!

نظرت أريكا إلى فيليب لترى فمه يشتد وهو يقول:

ـ «مسكينتك» أريكا حرة في أن تغادر منزلي ساعة تشاء. . وأنا نادم على تصرفي معها منذ زمن بعيد. وأسعى إلى طلب إلغاء الزواج. . فهل يرضيك هذا؟

أحست أريكا أنها تحولت إلى حجر. أرادت أن تصيح، أن تطلق احتجاجاً ما، فانعقل لسانها. نظرت إلى فيليب، عيناها الخضراوان تتسعان صدمة وألماً. . لكنه بدا غير متنبّه لها.

كان يتكلم مع سكوت:

ـ وصولكم سنيور كان في وقت مناسب، في الواقع، وأعتقد أنك مستعد لمرافقة. . زوجتي، إلى حيث تريد الذهاب؟

بدا الحرج على سكوت:

ـ طبعاً . . متى تكونين مستعدة حبيبتي؟

كانت أريكا لا تزال تراقب فيليب ورأت الكراهية التي سببتها له كلمة حبيبتي، فقالت مرتجفة:

ـ أيمكن أن ننتظر قليلاً؟ . . أريد مكالمة زوجي على انفراد.

الرجاء في عينيها التقى بالبرود في عينيه. ثم هز رأسه باختصار ولحقت به خارج الغرفة تعي نظرات نيقيل وسكوت إليهما بذهول واضح.

ما إن أقفل الباب وراءهما حتى أمسكت كم قميصه: فيليب . .

ارتدّ عنها وقال:

ـ دقيقة واحدة . . هذه الردهة ليست مكاناً منفرداً . . من الأفضل الذهاب إلى مكتبتي.

كانت المكتبة معتمة وباردة . . وقدم لها مقعداً فجلست فيه مسترخية تسأل: لماذا تبعدني؟

ـ كيف يمكنك سؤالي هذا بعد الذي حدث بيننا؟ هذا الزواج الذي فرضته عليك كان جنوناً . . ولقد آن الوقت لنستعيد تعقلنا قبل أن نؤذي أنفسنا أكثر . . اذهبي من هنا أريكا اتركي المكسيك . . وسرعان ما ستنسين هذه الفترة القصيرة من حياتك وكأنها كانت حلماً.

حاولت أن تبتسم، لكن شفتيها كانتا ترتجفان:

ـ فيليب أنت لا . . لا يمكن أن تكون ما زلت تظن أنني . . أن مانويل . .

رأته يجفل:

ـ ديوس! لا! لا . . كانت كذبة غبية أُشيعت، لم تَنْطَلِ عليّ . . ثم . .

والتوى فمه مرارة:

ـ . . لقد تصرفت معك كحيوان . . بطريقة لا أعامل بها فتاة من الشارع. والتعويض الوحيد والمناسب لك عندي هو أن أعطيك حريتك.

حريتي! بعد أن أصبح حبك قيداً يربطني بك إلى الأبد!

حاولت أن يكون صوتها ثابتاً:

ـ إذن أنت لا تريدني بعد؟

نظر إليها ساخراً:

ـ لا أريدك تشيكا؟ لك وجه جميل وجسد فاتن. من يراك ولا يريدك؟ لكنني أعترف أن هذا ليس الأساس الكافي للزواج.

أحست أريكا ببرود كالثلج، وقالت:

ـ لكنك ظننت هذا يوماً.

هز كتفيه بخفة، ووجهه لا زال ساخراً:

ـ ظننت أنني شرحت بأننا حين تقابلنا أريكا، كنت أشعر بالسأم من توقع الزواج الذي ينتظرني. ولوقت ما، كنت أنت . . شيئاً جديداً وفاتناً . . لكن، الآن، ذلك الوقت مضى.

قالت بصوت يكاد يكون مسموعاً:

ـ لقد قلت لعائلتك . . إنك وقعت في حبي من النظرة الأولى. هل كان هذا صحيحاً أم مجرد كلام؟

سار عبر الغرفة ووقف مديراً لها ظهره:

ـ كان كلاماً ليس إلاّ.

زفرت بتنهيدة سريعة مؤلمة . . ثم وقفت . . فاستدار مجفلاً لحركتها . . وقال:

ـ ستحتاجين إلى مال . . وإلى هذا.

أخرج جواز سفرها من درج، ومرره إليها عبر الطاولة:

ـ متى اتخذت مكاناً للسكن، دعيني أعلم كي يتصل بك محاميّ.

ـ بهذه البساطة؟

التقطت الجواز، ورأت فيه بعض المال . . فتركت المال يهبط على الطاولة:

ـ لست بحاجة إلى إحسانك فيليب. لدي أصدقاء وأنا قادرة على كسب قوتي، كما كنت أفعل قبل أن نلتقي!

أجفل متصلباً:

ـ من الطبيعي أن يكون هناك تسوية . . .

التقت عيناه بثبات:

ـ سأرفضها.. سآخذ ما كان معي حين أتيت، ولا شيء سواه.. ربما تكون طيباً بما يكفي لتودع مانويل عني.

خرجت من الغرفة دون نظرة إلى الخلف، مباشرة إلى غرفتها.. للحظة وقفت هناك تنظر حولها تكاد تجن، وتحاول أن تتذكر أين وضعت كريستينا حقيبة كتفها.. بعد تفتيش سريع وجدتها، فأخذت تضع فيها ثيابها أولاً، الجواز ثم حفنة ملابس داخلية، أدوات التجميل والزينة، وستحتاج إلى ثوب نوم. فتشت عن الثوب الأصفر لكنه كان قد أرسل إلى الغسيل.. وأول ما وجدت في الأدراج الغلالة الفاتنة التي خاطتها لها سنيورا شوليو لليلة عرسها.. لكنها رمتها من يدها وكأنها من قماش يخدش بشدة لابسه.. أينما نامت الليلة ستتدبر أمرها دون فستان نوم، وفي الغد ستقترض بعض المال من نيڤيل وتشتري بعض الحاجيات الأساسية.. تصورت أنهما سيأخذانها إلى كاليفورنيا.. وإذا كان هذا صحيحاً ستكمل طريقها إلى لوس أنجيلوس لتجد شارلوت.. ربما لا يزال هناك مجال للعمل مع شركة كيمكو، وستجد لنفسها مكاناً تعيش فيه..

توقفت تغمض عينيها والألم يعتصرها. لا فائدة من تذكر كل ما يثير الأعصاب في حياتها. لكن كيف تمحوها من ذاكرتها؟ أن لا تعانقه بعد اليوم.. أن لا تلتقي بعينيه عبر المائدة.. أن لا تركب الخيل معه ليلاً تحت النجوم.. أن لا تشعر بطفله يتحرك في أحشائها.

خلعت الفستان الأخضر وكأنها تخلع جلدها وارتدت فستاناً أزرق كانت ترتديه ساعة جاءت إلى هنا.. ثم ربطت شعرها إلى الوراء عند مؤخرة العنق بشريط عريض كحلي اللون.

كان نيڤيل وسكوت بانتظارها في الردهة وارتفع حاجبا سكوت:

ـ هل هذا كل ما لديك من متاع؟

ـ لا.. بل هو كل ما سآخذه.

وضعت نيڤيل يدها على ذراعها:

ـ أترغبين حقاً أن تغادري هكذا؟ بكل تأكيد هو مدين لك بشيء لمعاملته لك بقسوة...

ردت بثبات:

ـ لا يدين لي بشيء.. مهلكما لحظة لوداع أخير.

دخلت غرفة الطعام تتطلع إلى لوحة دونا تيريسا.. ونظرت إلى الوردة، وإلى الفراشة المثبتة في شعرها الأسود، وتركت الألم يجتاحها مرة أخرى. وفكرت: لقد تركت أسطورة «الماريبوسا» تؤثر عليّ فعلاً.. كنت أريد أن أكون مثلك.. لكن الأمر مستحيل.

كان بيدرو المرتبك يقف في الخارج.. وبدا في حيرة من عدم وجود حقائب معها، وغير موافق أيضاً.

ـ هل أنت ذاهبة في رحلة سنيورا؟

هزت رأسها موافقة وسألت:

ـ أما زال دون فيليب في المكتبة؟ أريد كلمة أخرى معه.

ـ آه.. لا سنيورا! لقد ذهب السنيور إلى الاسطبل.. وأعطى أوامر لتحضير «أميغو» له.. ربما لم يكن يعلم أنك ستغادرين سريعاً..

قالت بلطف:

ـ لا بأس بيدرو.. لقد ودعته.

ـ ڤايا كون ديوس سنيورا.. وعودي بسرعة.

ابتسمت أريكا بارتجاف وخرجت إلى السيارة المنتظرة.

كانت نيڤيل وسكوت لطيفين حقاً.. مع أن أريكا أحست أنهما كانا يحترقان تساؤلاً. جلست في المقعد الخلفي للسيارة الكبيرة، تحدق خارج النافذة وهي تلتهم الأميال.

أخيراً توقفوا في بلدة صغيرة وقال سكوت:

ـ إنه وقت الطعام.

كانت أريكا تفضل البقاء في السيارة.. مجرد التفكير بالطعام أصابها بالغثيان.. لكنها لم ترد أن تكدر سكوت ونيڤيل.. هكذا رافقتهما إلى مطعم صغير في الساحة الرئيسية.. وجاءتهم فتاة مبتسمة بالطعام.. كان دماغ أريكا يدور كالدوامة لكنها أجبرت نفسها على أن تشرب وتأكل.

قال سكوت يراقبها: تبدين شاحبة جداً حبيبتي.

قالت نيڤيل بحرارة:

ـ وهل هناك عجب في هذا؟ بعد كل ما قضّته من معاناة.

هزت أريكا رأسها:

ـ مهما كان ما حدث.. فأنا أستحقه.

قال سكوت:

ـ سمعت ما قلته، لكنه غير منطقي.. فهذا الرجل عاملك كالتراب من البداية حتى الآن. حسناً، لقد حاولت خداعه، وماذا في الأمر؟.. لكن، يا للسماء، ما كان يجب أن تكون ردة فعله هكذا..

ـ كانت مجرد نزوة متهورة.

ـ يبدو أن لديه الكثير من النزوات المتهورة.. والآن أصيب بتهور آخر وقرر أن هذا يكفي.

أحنت أريكا رأسها:

ـ لم.. يكن زواجاً حقيقياً.. ولا سبب يدعو أياً منا ليشعر أنه مرتبط به.

سألت نيڤيل:

ـ وما هي تلك النزوات؟ دون فيليب لا يستسلم لأمثالها.. حين كنت ألتقي به، كان دائماً منضبطاً متباعداً، لا يتردد أبداً.

ذكرتها أريكا بابتسامة ضعيفة:

ـ عدا مرة واحدة.. حين حاول إركابك على جواده.

ضربت يدها على رأسها:

ـ آي..! لقد نسيت هذا.. يا لأمي المسكينة! كم كانت خائفة!

قال سكوت:

ـ اسمعا.. أيمكن أن نقطع حبل الذكريات؟ أريكا لديها مشكلة، نحن نقود باتجاه كاليفورنيا ولست أدري ما إذا كان يجب أن نفعل، فهناك خلفنا رجل أجبرها على نوع من الزواج.. وهي تكره رؤيته.. لكن هذا لا يعني أنك يجب أن تتركيه ينجو بفعلته هكذا.

قالت أريكا ببساطة: أنا لا أكرهه.

وضعت نيڤيل كأس العصير من يدها ونظرت إلى أريكا:

ـ أريكا.. ماذا تقولين؟ لا يمكن أن تكوني جادة!

حركت كتفيها بقلق، ثم ابتسمت بمرارة:

ـ أنا الآن جدية أكثر من أي وقت مضى.. أجل، لقد ضغط عليّ للزواج منه في البداية، لكنه لم يكن بحاجة للضغط.. كنت أريده حتى قبل أن أعرف من هو.

قالت نيڤيل مرتجفة:

ـ ديوس.. أنت تحبينه.. إذن لماذا رحلت معنا؟

ـ لأنه لا يحبني.. وكنت خائفة أن أظهر له كم أنا مهتمة به.. كانت كارثة منذ البداية.

اعترفت أريكا بارتباك.. لكن الاعتراف بحقيقة المشكلة جعلها تحس بالارتياح.. وهي تجلس في السيارة، راجعت في ذهنها آخر مشهد مع فيليب مرات ومرات.. تحاول فهم ما حدث. لقد تصرف وكأنه لا يهتم بها.. لكن، بالتأكيد، إذا كان الأمر هكذا لما كان غاضباً، ولا أحس بالغيرة حول علاقة وهمية مع مانويل.. لا شك أن رد فعله العنيف يثبت أنه مهتم؟

لكنها لا تريد التفكير في مجرد الاهتمام.. لقد اعترف أنه ما زال يريدها، وكان يمكن لها أن تبني شيئاً على هذا.

وضعت نيڤيل يدها على ذراع زوجها:

ـ سكوت.. يجب أن تعود إلى لاماريبوسا فوراً.

احتجت أريكا:

ـ لا.. لقد انتهى الأمر.. لا أستطيع العودة.

قالت نيڤيل بشدة:

ـ لا شيء انتهى.. قلت لنا إن الزواج لم يكن حقيقياً.. فكيف يمكن أن ينتهي وهو لم يبدأ بعد؟ وإذا ذهبت إلى كاليفورنيا، لن يفيدك هذا، فدون فيليب لن يلحق بك إلى هناك.. لأنه متكبر جداً.

قال سكوت:

ـ سأقودكما إلى حيث شئتما، لكن ليس بمعدة خاوية. إذا كانت أريكا

تريد إكمال الطريق إلى كاليفورنيا أو العودة إلى الهاسيندرا، فهي بحاجة لأن تأكل.. وإلا ستقع تحت قدمي دون فيليب مغمياً عليها.. وهذه ليست فكرة جيدة أبداً.

كانت وجبة طعام طويلة متباطئة، وجلست أريكا بصمت تجبر نفسها على ابتلاع قليل من الطعام قدر استطاعتها. كان الوقت منتصف بعد الظهر قبل أن تبدأ رحلة العودة.. وجلست بهدوء تتساءل ماذا ستقول.. كيف تصلح الأمور بينهما..

لن يكون الأمر سهلاً، فهناك أكثر من مسألة كرامته.. هناك شعوره بالخجل لمعاملته السيئة لها.

كانت لا تزال تشبك أصابعها حين اتجهت بهم السيارة في الطريق الخاص نحو الهاسيندرا.. كان الظلام قد هبط، ولم تدر أكان من المفترض أن تكون سعيدة أم آسفة لهذا.

أوقف سكوت السيارة أمام المدخل الرئيسي، وتقدم ليقرع الجرس.. وارتخى فم بيدرو حين رآها:

ـ أي سنيورا! لقد عدت إلينا.. سيكون دون فيليب رجلاً سعيداً!

ردت بهدوء لم تكن تشعر به:

ـ أتمنى هذا بكل تأكيد.. هلا دبرت غرفة للسنيور والسنيورة كاميلز في جناح الضيوف بيدرو! سيبقيان هنا الليلة.

ـ من دواعي سروري سنيورا.

وتحرك يستقبل الضيوف ويأخذ حقائبهما.

أخذت أريكا نفساً عميقاً، وصعدت السلم.. لديها متسع من الوقت لتغيير ملابسها قبل العشاء.. ولو أسرعت فقد يكون أمامها فرصة للكلام مع فيليب أولاً.

لا شك أنه الآن في غرفته، ولسوف تحاول لقاءه هناك قبل أن ينزل إلى «الصالون» مع أنها لا تزال غير واثقة مما ستقول له بالضبط.

ذهبت إلى غرفتها تتقدم من السرير لتشعل المصباح الكبير.. وعندما غمر النور المكان كاد قلبها يقفز من مكانه.

كان فيليب هناك، مستلقياً على وجهه على السرير، وجهه غائص في الوسادة.. كان يرتدي كامل ملابسه، ما عدا الحذاء المرمي وسط الغرفة وقد علاه التراب.. وأدركت أنه كان مرهقاً، وقد أخذ منه التعب كل مأخذ لينام بسرعة حيث هو.

كانت ذراعه تتدلى باسترخاء فوق السرير، وعلى الأرض تحتها شيء يلمع وقع من يده المسترخية دون شك.. انحنت أريكا لتلتقط فراشتها الفضية.

ضمتها بمحبة في يدها، وسعادتها تتعاظم.. لا بد أنه ذهب إلى الكوخ ليحضرها، وهذا بحد ذاته إشارة أمل.. إذ لا قيمة مادية لها ليهتم بها.

رفعت الفراشة إلى فمها، ثم وضعتها على الخزانة الصغيرة قرب السرير.

خاطبته بصمت.. فيليب يا زوجي الوسيم، المرغوب، المحبوب، العنيد.. لقد آن أن تستيقظ.. انحنت تقبل شعره الأسود المشعث.. فتحرك على الفور ورفع نفسه على مرفقه، وتطلع حوله، كانت بعيدة عنه عدة أقدام، تقف عند حافة دائرة الضوء، تبتسم له.

قالت:

ـ بوناس نوتشاس سنيور.

للحظات طويلة حدق فيها. وجهه متجهم بارد، لكن كان هناك ارتباك في عينيه.

أخيراً قال بهدوء:

ـ إذا كنت أحلم، فأتمنى أن لا أستيقظ أبداً.

ـ لست تحلم سنيور.. أنا لحم ودم، كما سأثبت لك فوراً.

ركلت حذاءها من قدميها، واستدارت ببطء على قدم واحدة حافية.

ـ أرأيت.. أنا حقيقية.. كل ما فيّ حقيقي.

قال بجفاء:

ـ رأيت.. أريكا.. ماذا تفعلين هنا؟ لماذا عدت.. وكيف؟

ـ لقد أرجعني سكوت ونيقيل. إنهما في جناح الضيوف وأنا هنا لأنك خدعتني، دون فيليب.. قبل أن تتزوجني وعدتني بالحب.. ولقد

غششتني.. واليوم عرفت السبب.

مرة أخرى استدارت في خطوة واسعة، تسمح لتنورتها أن تلتف من حولها.

قال بصوت ثابت:

ـ وبالطبع.. ستقولين السبب لي.

ـ طبعاً.. لقد تزوجتني لأنك لا تريد أن تتزوج دمية، أو امرأة مملة تقليدية.. لكن حياتنا معاً لم تخل بالإثارة التي رغبت فيها.. هكذا..

ابتسمت له:

ـ... قررت أن أكون أكثر ميلاً للدعابة معك في المستقبل.. وبدءاً من الآن.

نظرت إليه من تحت رموشها، ورأت برضى يقطع الأنفاس كيف أنها أسرت اهتمامه. وبدت، بكل إرادتها، واثقة النفس كما كانت ترغب. لكنها في الواقع تكاد تتشقق توتراً.. رفعت يديها تفلت الشريط الذي يربط شعرها. ونفضت الشعر الأحمر البني لتنسدل خصلاته على كتفيها..

لم تره يتحرك، لكنه أصبح قربها، يداه تحيطان بقدّها، ليشدها إليه.. وانحنى رأسه الأسود في استجابة للدعوة الخرساء التي ترسلها عيناها:

حين استطاعت أخيراً أن تتكلم، قالت بخشونة:

ـ سنيور.. هذا انتهاك للحشمة..! فالمتفرج محرّم عليه الاشتراك بالاستعراض!

رد بصوت ضاحك:

ـ وهل هذا صحيح؟ أنا طبعاً لا أعرف شيئاً عن مثل هذه الأمور.. لكنني أفهم أن العرض ينتهي عادة، حين يلتقي الحبيبان.

أحست باللون الأحمر المحموم يغزو وجهها، فلامس بشفتيه خدّها:

ـ تحمرين خجلاً كويريدا؟ أنا واثق من أن ليس هناك فتاة استعراضية تحمر خجلاً.

ـ لست فتاة استعراضية حقيقية.. حتى أنني لست زوجة حقيقية.. لكنني أحبك فيليب..

دس يده تحت ركبتيها وأطاح بها إلى فوق بين ذراعيه.

ـ إذن، أنا في خدمتك كويريدا.. ستكون مأساة أن يصيب شيء هذا الجمال الذي أهملته بغلطة فادحة مني.

لم يعد هناك أي مجال للشك أو لسوء التفاهم، وبالتأكيد لأي خوف.. وهو يضعها بلطف على السرير، التفت ذراعاها خلف عنقه، فهمس:

ـ كويريدا، أنا لن أتركك..

بعد فترة وفيما هي مستلقية قربه سألته:

ـ فيليب.. هل أسألك شيئاً؟

ـ سلي ما شئت..

قالت بحياء:

ـ لقد كان لك نساء أخريات.. وأنا.. كانت هذه المرة الأولى.. الحقيقية.. لي.. لذا..

ـ إنها إذن، المرة الأولى لي أيضاً.. المرة الأولى معك كويريدا، زوجتي، المرأة التي أحب.. أجل أعترف بوجود نساء أخريات.. لكنني سأعترف لك بأمر يا وردتي الإنكليزية.. أنا أفضل أن تكون زوجتي تلميذة بين ذراعي على أن تكون لي نداً في الخبرة.

شهقت:

ـ هذا تحيز إلى جنس واحد.

ـ أعرف، وأنا أخجل منه.

ـ أنت كاذب سنيور. هل قال لك أحد من قبل إنك وسيم؟

رد بوقار:

ـ لا.. وهذه أول مرة أخرى بالنسبة لي.. وهل قال لك أحد من قبل كم أنك حلوة، كم أنت ناعمة، نديّة، ومرغوبة؟ وأنني أحبك أكثر من حياتي ذاتها؟

ـ إذن لماذا حاولت إبعادي؟

تنهد:

ـ وماذا يمكن أن أفعل غير هذا؟ لقد قلت في نفسي إنني دمرت كل

شيء.. أفسدت إلى الأبد أية فرصة كانت لنا للسعادة معاً.. كنت قاسياً جداً عليك، أخرقاً ومتوحشاً، عذري الوحيد أنني كنت مجنوناً بالرغبة فيك.. ومجنوناً أكثر بالغيرة من مانويل المسكين.

ـ كانت تلك غلطتي.

ـ قليلاً، ربما.. لكن لا يهم.. لقد قلت لنفسي إن من المستحيل أن تغفري لي بعد الذي فعلته بك.. وإنني سأبقى دائماً خائفاً من أن تنظري إليّ كما فعلت ليلة زواجنا، وكأنني متوحش.. لقد استلقيت معك ليلة أمس أضمك.. وأدركت أنني لن أستطيع مواجهة خوفك مني مرة أخرى.. لكنني أدركت في الوقت نفسه أنني لن أستطيع العودة إلى حياة منفصلة كما كنا.. لذا بدا لي أن خير ما أفعل هو أن أبعدك.

قالت بصوت منخفض:

ـ فيليب.. أنا لم أفكر يوماً بأنك متوحش.. كنت أخاف من نفسي.. ومن كل المشاعر التي كنت أعرف أنك قادر على إثارتها في داخلي.. وعرفت أنني أحببتك.. وكنت خائفة أن أظهر لك هذا كي لا تسخر مني.

رد مصدوماً:

ـ أسخر؟ أريكا، لكنت جثوت على ركبتي شكراً لله من أجل كلمة لطيفة واحدة، نظرة منك. قبل حدوث كل هذا مع آلانا، كنت قد قررت أنني كنت على خطأ في محاولة بدء حياتنا هنا، مع أنك بدوت وكأنك تحبين لاماريبوسا. فكرت أن آخذك بعيداً.. في رحلة إلى الجنوب كما خططت قبل أن نلتقي.. وستكون رحلة شهر عسل.. قلت في نفسي يجب أن أفعل أي شيء في العالم لأجعلك تقعين في حبي، حبي أنا وحدي.. ثم، بعد أن رحلت اليوم.. ركبت جوادي إلى الكوخ، ووجدت الفراشة.. بقيت هناك ساعات.. أتذكر كيف التقينا. أعذب نفسي.. وعرفت أنني لن أستطيع الابتعاد عنك. ساعة عدت، اتصلت بشركة الطيران وحجزت لنفسي مقعداً إلى انكلترا.. ظننتك ستعودين إلى بلادك، إلى عائلتك.. وأنك لو فعلت، سأكون هناك بانتظارك لأطلب منك العودة معي، وأنا راكع على ركبتي، إذا لزم الأمر.

تهلل قلبها.. لقد كانت نبيلة مخطئة في كلامها عن كبريائه.. لقد كان مستعداً للتضحية بتلك الكبرياء لأنه يحبها.

قالت:

ـ لكن، بدلاً من كل هذا، عدت أنا إليك.. وحصلت على ما تريد.

ابتسم بكسل:

ـ فعلاً سنيورا.. وبأكثر من طريقة..

ـ قلت مرة إنك تريد سماع اسمك دون اسم أحد سواك من شفتي.. فيليب.. أيمكن أن أخبرك بأمر هيوغو؟

هز كتفيه:

ـ إذا رغبت كويريدا..

ـ لا.. لكني لا أريد لأية علامات استفهام من الماضي أن تتدخل في المستقبل.

باختصار روت له الأحداث التي أدت إلى تركها زوريخ.. وأكملت:

ـ تلك الأحلام التي كانت تراودني كانت في الحقيقة معك. لكنني تلقيت رسالة من أمي فيها رسالة مختومة، لم تعرف ما بداخلها.. ولا ممن هي، ولا عرفت أنا إلى أن فتحتها. لقد قرأتها قبل أن تأتي إلى غرفتي ليلة زفافنا.. وأدركت ساعتها أنني لم أحبه.. وأنني حين قارنت إحساسي تجاهه بما أشعر به نحوك، كان الفارق شاسعاً.

ابتلعت ريقها:

ـ أدركت كذلك لماذا لم أحاول الهرب مرة أخرى.. وتملكني الخوف.

قال بصوت منخفض:

ـ إذن هذا كان السبب.. عرفت أن هناك شيئاً.. مع أنني في البداية حسبت أنك منسجمة مع الموسيقى التي رتبتها لك.

ـ وكنت كذلك فعلاً.. كانت فكرة رائعة فيليب! لماذا لم نترك الموسيقيين الآخرين يعزفون لنا في مطعم الموتيل؟

ابتسم:

ـ لأنني كنت قد بدأت أدرك لتوي أن خططي معك تذهب إلى أبعد من

الإغواء.. الموسيقيون ظنوا أننا عاشقان، وهذا ما كنت أنويه معك.. ثم خطر لي أنني أريد أن تلازمك الموسيقى في كل المناسبات، وليست وسيلة ضغط لاستدراجك إلى فراشي.

عانقها:

ـ لقد لعنت نفسي يومها لأحاسيسي الخسيسة، صدقيني.

رفعت يداً تتلمس خده:

ـ أوه.. أصدّقك.. فيليب.. ما زال ذلك الخطاب عندي. أتريد أن تقرأه؟

ـ فقط إذا كان هذا ما تريدين.

تسلّلت من بين ذراعيه، واستعادت الورقة المكورة من الدرج. ثم عادت لتستقر بين ذراعيه:

ـ كم أنت جميلة.. سوف أخترع وجود رسائل في كل أنحاء الغرفة، لمجرد أن أراقبك وأنت تحضرينها.

كشرت في وجهه:

ـ اقرأ الرسالة، أو سأرتدي ملابسي!

ـ لا تعتمدي على هذا.. فقد لا أدعك تتركين هذه الغرفة ثانية.

فجأة فكرت بشيء:

ـ أوه.. لكن.. فيليب، أنا يجب، نحن يجب.. أن نغادرها. نيقيل وسكوت.. لقد مرت ساعة العشاء.. إنهما الآن يتساءلان ألن نكون.. و..

ـ أظن أن لهما مخيلة تكفي ليعرفا أين نحن.. سنراهما في الغد.. والآن دعيني أقرأ الرسالة.

فتح الورقة المجعدة وملسها، وبدأ القراءة مقطباً.. حين أنهاها تمتم:

ـ يا للمخلوق التعيس.

ثم مزق الرسالة ورماها أرضاً.

نظرت إليه مجفلة: من.. هيوغو؟

ـ لا.. بل زوجته.. فلتسكن روحها بسلام. إذن هذه نهايته.. لقد

نجوت من مزيد من التعاسة مع هذا الرجل.. لكن كما تقولين.. ليس هناك المزيد من علامات الاستفهام.

ـ والمستقبل كله يمتد أمامنا.

وضغطت نفسها إليه.. وأكملت:

ـ ما أروع أن هذا المستقبل يشمل ليلتنا هذه.

قال مبتسماً لعينيها:

ـ ما أروع أن يشملك أنت يا حبيبة قلبي.

ورأت النظرة التي طالما تشوقت لأن تراها في عينيه، وجعلتها تحبس أنفاسها.

قالت بنعومة:

ـ أوه فيليب.. فيليب.. أحبك كثيراً.. أنا، أنا لن أتمكن أن أقول لك..

عانقها:

ـ بلى مي كويريدا.. بإمكانك القول لي.. لكن هكذا.

وازداد عناقه حرارة وعمقاً.

* * *